



روايات د نجيب الكيلاني  
من روائع الأدب الإسلامي

# رواية الحارة اليهودية

عبد الرحمن

كلم لفظين صهيون

Jewish Alley

Dr. Naguib Al Keilany

# حارة اليهود (دم لفطير صهيون)



تأليف  
نجيب الكيلاني

حقوق الطبع محفوظة  
الطبعة الأولى للنشر  
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

رقم الإيداع:  
الترقيم الدولي، ٢٠١٢/٣٥٠٢



للنشر والتوزيع  
٤٨ شارع مجلس الأمر - القاهرة  
تليفاكس: ٣٩٤٦٥٩٤  
daralsahob@gmail.com



نحن في دمشق في أوائل عام ١٨٤٠ م، بعد أن احتلت قوات محمد علي باشا الشام بقيادة ولده إبراهيم باشا، ذلك القائد المحنك، وها هي دمشق تخضع للحكم المصري، وواليتها من قبل الجيش المتصر هو الرجل اليقظ شريف باشا، وليس في دمشق كلها من لا يعرف تلك الحارة الشهيرة المميزة، حارة اليهود، فإذا سرت في هذه الحارة وقعت عينك على رجال اليهود ونسائهم وأطفالهم، وعلى بيوتهم المتلاصقة المزدوجة، الأبواب تبدو صغيرة قليلة الارتفاع، لا يكاد المرء يدخلها إلا منحنياً، ولا تتسع لأكثر من واحد، وكأنها أبواب الدهايز الغامضة، والباب يقودك إلى عمر ملتو كالأفعى، يفضى إلى باحة واسعة تشر فيها الأغنام والطيور والأرانب، وبعض الحشائش، وقد تجدد

أشجاراً مثمرة كالتين والعنب، ومن أن لآخر ترى حائوتاً  
لبيع الخبز والمأكولات، وآخر يتلألاً فيه بريق الذهب  
والجواهر، وثالثاً يكتظ بأنواع الأقمشة والمنسوجات ذات  
الأكوان الزاهية، وقد نجد بالقرب منه خائناً كبيراً لبيع  
الأخشاب، وهناك قرب النهاية نجد (كنيس الإفريج) الذى  
يتردد عليه اليهود لتأدية شعائر دينهم فى حرية تامة، وإلى  
جوار الكنيس يقبع محل (سليمان الحلاق) الذى يتردد عليه  
كثير من الزبائن اليهود وغير اليهود، وسليمان ضرب  
اللسان، حلو النكتة، يقلد الأوربيين فى طريقة قص  
الشعر، وتنظيم الخصلات، وتنميق السوالف، وسليمان  
مشهور أيضاً بعملية (فصد الدم) بارع فى تأديتها، فكثيراً ما  
تراه يغلق دكانه ويحمل حقيبته، ويذهب إلى أحد البيوت  
لإجراء فصد الدم لبعض المرضى، وسليمان يهجم بالدرجة  
الأولى ألا يخرج من أى بيت خاوى الوفاض، ومن ثم تراه  
يؤكد لكل مريض أن فصد الدم ضرورى له، حتى ولو كان  
هذا المريض مصاباً بفقر الدم والهزال، أو كان يعانى من  
إسهال حاد، حيث إنه يحب المال ويحب منظر الدماء

أيضاً، والفصد يحقق له الهدفين معاً، وسليمان سمح الوجه، باسم .. دائماً لا تكاد تعبيرات وجهه تشف عما يعتل في داخله .

وفي حارة اليهود بدمشق تقيم أسرة (هرارى) ذات الثراء الفاحش والتجارات الواسعة والصيت الذائع، ومترل (داود هرارى) يعرفه الجميع، فهو بناء جديد يوحى بالعظمة والغنى والتفوذ، نوافذه الزجاجية ذات الستائر الحريرية تجذب إليه الأنظار، وطلاؤه الناصع البياض يوحى بالإعجاب والمتعة، حتى النسوة اللاتي تظهر وجوههن من النوافذ أو فرجات الأبواب يتمتمن بجمال فائق، وأصواتهن الرخوة الناعمة تثير خيال المراهقين، وتحرك الدماء بعنف في عروق الرجال، ومن أشهر الرجال الذين يقيمون في حارة اليهود الحاخام (موسى أبو العافية) والحاخام (موسى سلايكللى) إنهما كثيراً ما يبدوان في الحارة وهما ذاهبان إلى الكنيس أو عائدان منه، يحوطهما الوقار والهدوء والغموض، وهى من لزوميات رجل الدين اليهودى .

---

وفى حارة اليهود تبدو أشياء مسلية ، بل ومضحكة فى بعض الأحيان . إن عشرات من الشبان (الشوام) وبعض عساكر محمد على ، يمضون فى حارة اليهود يوزعون نظراتهم يميناً وشمالاً ، ويحاصرون النسوة السائرات فى الطريق بعيونهم النهمة الجائعة ، ويطلقون كلمات الغزل الساذجة بصوت خفيض فى أغلب الأحيان ، ونادراً ما يقولونها بصوت مرتفع ، والختجل يوشى وجوههم التى تفيض حيوية ، فالشائع عندهم أن النساء اليهوديات لا يكثرن كثيراً بالأداب المرعية ، ولا مانع لديهن من أن تنصب فى آذانهن كلمات الإطراء والثناء على جمالهن ، وعديد من الأفاصيص والحكايات يرويها المراهقون عنهن ، ويالغون فى تفاصيلها ، ولعل مما يقوى هذه الظنون حب اليهود للمال ، ورغبتهم فى الحصول عليه من أى طريق ، فلا عجب أن تقع العين على أحد الشبان وهو يعيث بجيوبه ويحركها حتى يصدر عنها صوت ارتطام القروش ببعضها ، أورنين القطع الذهبية ، ذات الصدى الساحر ، وعلى الرغم من أن هذه المظاهر قد تؤذى مشاعر الرجال من اليهود إلا

أنهم يفضون الطرف عنها، ويتجاهلون لها تماماً، أملاً في أن يعيل بعض هؤلاء على المحلات التجارية، ويشتري بعض أغراضه، ومن أن لآخر تسمع أحد تجار اليهود يدلل على بضاعته قائلاً:

(تفضلوا يا شباب . . . عندنا عطور فاخرة . . .).

(هنا أعظم الثياب الحريرية . . .).

(تفضلوا . . . مجوهرات . . . وخواتم ذهبية وفضية . . .).

وغيرها من الأشياء التي تصلح كهدايا .

وقد يتقابل أحد الشبان صدقة مع إحدى اليهوديات وهي تشتري بعض ما تحتاج إليه من بضائع، فترمقه بنظرة عابرة، فتغذى تلك النظرة خياله بألاف الأمنيات، وتشعل في كيانه الرغبات الجامحة، فيمضي وراءها مسلوب الإرادة حتى يراها وهي تختفي وراء أحد الأبواب، ويبقى هو راثعاً غادياً يحلم باللقاء العاصر بكل ألوان الملذات، ويظل هائمًا في أحلامه حتى يحط المساء، وتنبعث أضواء المصابيح الهزيلة .





وليس فى مدينة دمشق كلها من لا يعرف الأب (توما)،  
أو البادرى توما كما يسمونه، وهو قيس من سردينيا،  
إيطالى الأصل، لكنه يتمتع بالجنسية الفرنسية ويعيش فى  
دمشق منذ أكثر من ثلاثين عاماً، لقد تخطى آنذاك الخامسة  
والخمسين من عمره، ومع ذلك فإن وجهه الأشقر يفيض  
بالحيوية والنشاط، وعينه الصافيتين تنسكب منهما الطيبة  
والرضى واليقين، ولحيته الشقراء التى تناثرت فيها  
الشعيرات البيضاء تقطر سماحة وأماناً وثقة، الرجال يشنون  
لمقدمه، ويجلّونه أشد الإجلال، والنساء ترمقنه فى احترام  
بالغ، والأطفال يمتزج حبهم له بشئ قليل من الخوف؛  
لأنه يعطيهم دائماً الطعم الراقى ضد الجدرى، حتى اليهود  
برغم عدائهم التقليدى للمسيحيين لا يشنون عن هذه  
القاعدة، ويبدون كثيراً من التقدير والمحبة للأب توما، بل

إن اليهودى المعروف التاجر الثرى (داود هراى) يعتبر من أصدق أصدقاء الأب توما، وأخلص خلصائه، وكثيراً ما يراهما الناس جالسين معاً، يتناقشان فى أمور الدين والدنيا، ويرشفان أقداح القهوة التركية، ويتبادلان الملح والطرائف فى مودة لا مثيل لها.

ويسكن (الأب توما) - مع خادمه الوحيد إبراهيم عمار - فى دير صغير لا ثالث لهما، حياتهما هادئة بسيطة لا متاعب فيها ولا منغصات، (والأب توما) وقته موزع بين العبادة والقراءة ومعالجة المرضى، ولديه فى الدير مكتبة عامرة بكتب اللاهوت والتاريخ والطب واللغة، وهو حريص على مدوامة النظر فى كتب الطب، القديم والحديث، فتجد لديه كتب ابن سينا، وابن النفيس، والرازى، المترجمة عن العربية إلى اللاتينية والإنجليزية والإيطالية، كما تجد المؤلفات الحديثة فى علم التشريح والحميات والأقربازين والفيزياء وغيرها، وفى مقدور الأب توما أن يعطى الناس الطعم الواقع ضد الجسد؛ لأن هذا المرض كان كثير الانتشار فى تلك الأيام، وكان يأتى على هيئة موجات وبائية

عنيفة تكتسح المدن والقرى وتخلف وراءها الكثير من الشقاء والأحزان والعاهات، بل كثيراً ما كانت تترك جيئاً بأكملها مجموعة متاثرة من الجثث والعفن والبلاء . . والأب توما يستطيع أن يمارس بعض العمليات الجراحية الصغيرة، كأن يشق خراجاً أو يجبر كسراً، أو يخطط جرحاً، كما كان يداوى الكثير من الأمراض الباطنية باستعمال خلاصة الأوراق والنباتات التي يغليها فوق النار، وقد يقطر بعض المطهرات في عيون المرمدين، أو يضع بعض المراهم على رؤوس الأطفال المصابين بالقراع، وتراه في الصباح الباكر يستعد لإقامة الصلاة في الدير، فيغد إليه عديد من الناس، فيلقى مواعظه، ويؤدى الشعائر، وكان له الكثير من الأصدقاء الموقين، ذوى المراكز والكفايات العلمية والدينية، ومن أهمهم الخواجا (سانتى) الذى يعمل صيدلياً بالمستشفى العام بدمشق، وكثيراً ما كان (سانتى) يستعير الكتب من (الأب توما)، ويقضى معه بعض السهرات الليلية، يتدارسون فيها أمور العلم والدين والسياسة . قال له سانتى ذات مساء :

---

- (لماذا لم تتزوج؟).
- ابسم الأب توما وقال :
- (من قال ذلك؟ لقد تزوجت ..).
- نظر إليه سانتى باهتمام وقال :
- (عهدتك تتحرى الصدق دائماً ..).
- هز الأب توما رأسه وقال فى شيء من الشرود :
- (لقد تزوجت الحقيقة).
- انفجر سانتى ضاحكاً وقال فى معاتبة :
- (المرأة أقوى حقيقة فى حياتنا).
- (الإنسان ليس الحقيقة كلها بل هو جزء منها .. يا صديقى العزيز سانتى .. لقد عشت لها .. للحقيقة).
- همس سانتى وقد بدا الخجل على عينيه :
- (لكن المرأة حقيقة تبعث الدفء فى القلوب والأرواح والأجساد ..).

- (الحقيقة الكبرى دفنوها أبدى خالد).

ونظر الأب توما إلى السماء الصافية المرصعة بالنجوم  
المتألقة، وكان الجو بارداً ومتمم:

- (طوبى لكل الأتقياء).

تنهد سائتي وهتف:

- (إنه ضرب فريد من البطولة):

- (ماذا تقصد؟؟).

- (اغفر لي يا أبته .. أنا أصلى وأصوم .. لكن عطر  
النساء يدير رأسي، ولهذا تزوجت ولا أستطيع أن أتصور  
رجلاً طبيعياً بدون امرأة).

قال توما في يقين ثابت:

- (إنه حرمان بإرادتي .. لم يلزمني به أحد، وأنا لا ألزم  
به أحداً .. فليتزوج الرجال .. وليأت إلى الدنيا أطفال  
كالزهور .. لكن لا بد أن يكون هناك طائفة يتفرغون لمجد  
الله، ويمشقون الحقيقة .. ويهبون حياتهم كاملة لها ..).

وشرب الأب توما جرعة من القهوة واستطرد:

- (أنا فى قمة السعادة .. حينما أتأمل الوجود .. وأفكر فى عجائب مخلوقات الله .. وأندمج فى هذا الكون .. وأتذكر (السيد العظيم) أهيم فى عالم وردى رائع .. وأنشئ نشوة كبرى).

ثم التفت إلى سانتى قائلاً:

- (أست معنى فى أن الملذات تختلف؟ هناك من يجد لذته فى الطعام، وآخر يجدها فى المال وجمعه، وثالث لا يستشعرها إلا فى أحضان النساء .. وهكذا .. وأنا العاشق للكون وما فيه، أنا أنعم فى رحاب الحقيقة الأبدية أشعر أن سعادتى لا بداية لها ولا نهاية .. وُجدت قبل أن أولد .. وستمُتد .. وتتخطى سنوات العمر .. وترافقنى فى الآخرة .. أتعى جيداً ما أقول يا سانتى؟).

هز سانتى كتفيه وقال:

- (أقرّ بعجزى ..).

- (إن لك أجنحة، ولكنك تأبى أن تحربها ..).

---

- (آية أجنحة .. ؟).

- (الروح تستطيع أن تخترق بها الحواجز  
والحجب ..).

- (أنا ثقيل .. ثقيل .. يا أبتاه ..).

ربت (توما) على رأسه فى حنان صادق وعينه مبللتان  
بالدموع وتمتم فى رقة:

- (فليحرسك الله .. وليارك معاك).

وسادت فترة صمت قال الأب توما بعدها:

- (الرحلة طويلة شاقة لكنها ممتعة .. ما زلت أذكر  
الأيام والليالى .. جزيرة ساردينيا .. ونحن أطفال ..  
الشاطئ الجميل .. الصغيرات اللطيفات يلعبن فى المياه  
النقية كالأوزات وتردد صدى ضحكاتهن البريئة فى  
الآفاق .. وابتهامات الفتيات الجميلات فى ظلال  
الخمائل .. كنا نأكل فى نهم .. ونشرب .. ونلهو ..  
ونعب الحياة عباً .. كان كل شيء رائعاً وجميلاً .. ودخلت  
مدرسة اللاهوت .. وفتحت عيناي على السطور الأولى

من كتاب الحقيقة . . والكتب لا تظم كل شيء . . هناك أشياء كثيرة نتعلمها من التجربة وأشياء أخرى تنبثق من الذات، وينبض بها القلب . . وتشدو بها الروح، قد لا نستطيع التعبير عن هذه الأشياء مع أنها أروع ما فى الحياة والوجود . . لكنها موجودة . . وأشعر بها جيداً . . هى زادى وحياتى . . لذا ترانى سعيداً وأشعر أكثر بالسعادة حينما أراى وقد اجتزت تلك المسافات الشاسعة فى عالم النفس الرحب الكبير . . أه يا ساتى . . أنت يا ساتى لا تشعر بما يعمر قلبى من مجد وروعة).





٣

لا يستطيع أحد أن ينكر ما للداود هرارى من بطش  
ونفوذ وشخصية مرموقة ، هو بمقاييس رجال الدين  
اليهودى من المتدينين الأوائل الذين يحافظون على  
الصلاة، ويهتمون بالشعائر، ويظهرون احتراماً وتقديراً  
بالغين نحو المحامات، وكثيراً ما أجرى الترميمات  
اللازمة للمعبد اليهودى أو أعاد صباغته بالألوان الزاهية  
من عام لآخر، وهو بمقاييس رجال التجارة مراوغ كبير  
وذو حاسة تجارية لا تخيب، كما لو كان له قرنا استشعار  
يعرف بهما ما سوف يجد من أزمات فى بعض أنواع  
البضائع، فتراه يخزن بعض المواد، أو يجمعها من التجار  
ثم يخفيها تماماً، وعندما تستحكم الأزمة، وتشتد الحاجة  
إليها يظهرها بمقدار، ويوزعها فى السوق السوداء، فيبيعها

بأعلى الأسعار، وهو بمقاييس رجال النفوذ صاحب مركز قوى تربطه برجال القنصليات روابط وثيقة، وقريب من الحكام، ويستطيع الحصول على كل ما يستعصى عليه نواله بماله، وهو رجل أسرة يقبض على زمام الأمور بيد حديدية، فلا تستطيع زوجه الجميلة (كاميليا) ولا أولاده أو خدمه أن يحيدوا عن السياسة التى يرسمها قيد أئمة، فهو على ما يظهر رجل ناجح موهوب ينسق حياته العامة والخاصة تنسيقاً يكاد يكون آلياً، لكن أحداً لم يكن يعلم أن زوجه (كاميليا) كثيراً ما تضيق بهذا النظام الآلى الصارم، بل وتشمئز منه، لكنها فى نفس الوقت كانت مهیضة الجناح، مستسلمة للأمر الواقع، لا تستطيع أن تغير من الأمر شيئاً، وكانت تكتم فى نفسها غمردها وحنقها، وكانت صغيرة السن بالنسبة له، فهو فوق الخامسة والخمسين، أما هى فلم تكن قد بلغت الثلاثين من عمرها، وعندما كان داود يدعو عليه القوم إلى بيته كانت زوجه كاميليا تجلس وسط النسوة متألقة كالزهرة الندية، عيناها تنبضان بسحر جذاب فاتك، وعليها مسحة

من حزن لا يكاد يبدو، يزيد رونقها بهاء وفتة، وكان كل واحد من الحضور يتمنى أن يراقصها أو يجاذبها أطراف الأحاديث، لكنها على ما يبدو كانت خجولاً لم تتعود هذه الجراة وذلك الاختلاط برغم الحفلات المتكررة، ولم يكن داود يسمح لها بأن تغادر البيت وحدها، ولا تذهب إلى بيت أبيها أو جيرانها أو صديقاتها إلا في صحبته، وكان ينبّه عليها قبل كل حفلة أو مأدبة ألا تسمح لأحد بمراقصتها أو بالإطالة في الحديث معها مهما كانت شخصيته، حتى ولو كان سفيراً من السفراء، أو قنصلاً من القناصل، والغريب أنها بالرغم من حنقها عليه كانت تخافه، وتعمل له ألف حساب، كان ظاهرها في الواقع يتسم بالطاعة والرضى والحب لزوجها، وكانت أعماقها تكتظ بكراهية زائدة له ولأسلوبه في الحياة، لكن السر الخطير الذي لم يكن يعلمه أحد هو صلتها المريبة بخادم الأسرة (مراد الفتال).

ومراد هو محل ثقة زوجها، ويعرف الكثير عن أسرار سيده وصفقاته المريبة، بل يعرف أشياء قد لا تعرفها كاميليا نفسها.

---

إن مراد هو خادمه الأمين الذى يثق به ثقة مطلقة ، والحق يقال فإن مراد كان مخلصاً لسيدته داود ، ملتزماً بالآداب المرعية ، وكان متعلقاً بغتاة يهودية تقوم هى الأخرى بالخدمة فى بيت داود هرارى ، وكان كل أمله أن يتزوجها ، اسمها (أستير) لم تتخط التاسعة عشرة ، وهو يكبرها بخمس سنوات ، ويدو أن سيدتها قد أدركت العلاقة الوليدة بينها وبين زميلها فى الخدمة مراد ، فاشتعل قلبها بالحقدها عليها ، وكثيراً ما همت بطردها لكنها وقفت عاجزة أمام هذه العقدة ؛ لأن طردها ربما يؤدى إلى فرار مراد الفتال ، وكاميليا لا تريد ذلك ولا تطبيقه ، بل لعل تهور كاميليا فى مثل هذه الحالة قد يكشف ما خفى ، وينجلى عن فضيحة كبرى ، ولذا كانت (كاميليا) مضطرة لأن تخفض من حدة غضبها وغيبتها ، وتسوس الأمور بطريقة عاقلة ، وتحمل وجود أستير ، ويكفى أن مراد الفتال طوع بناتها .

قال داود :

- (لسوف أرحل اليوم إلى بيروت يا كاميليا) .

---

وعلى الرغم من أنها كثيراً ما تطرب لسفريات، وتسمى  
أن تتكرر دائماً، إلا أنها هفتت في دهشة:

- (إنك كثير الأسفار... وتركنى وحدى دائماً أعانى  
الوحدة والعذاب...).

نظر إلى وجهها الحزين، وعينها الدامعتين، وتمتم:

- (أنجييتى لهذه الدرجة؟).

بان الغضب على ملامحها، ونفرت منه في احتجاج،  
وأعطته ظهرها وهي تقول:

- (يا لك من ظالم! ألا تعرف حبي بعد هذه السنوات  
الطوال من الزواج؟؟ ثلاث عشرة سنة يا داود، إنها  
عمر...).

كانت في قرارة نفسها تشعر بأن أيامها معه تشبه أيام  
السجن برهته وعذابه وملله... تنهد في حسرة وتمتم:

- (رجل في الخامسة والخمسين وأنت في عز شبائك...).

التفتت إليه، وشبكت يدها خلف عنقه كطفلة تتعلق  
بأبيها وقالت وبراءة الأطفال في عينيها الجميلتين:

- (إن مجرد وجودك إلى جوارى يبهج قلبى .. علاقتنا فوق الماديات والمطالب الجسدية ..).

هذه الكلمات أزعجته ، إنه يشم فيها معنى العزاء والتماس المعاذير التافهة لضعف قوته ، وانحسار ظل شبابه .. شبابه الذى يعانى آلام الغروب ، ويرتحف من هول الشتاء .. شتاء العمر القاسى الذى لا يرحم .. وتمتعت (أنت لم تزل قوياً ..).

هى تكذب وهو يعلم ذلك جيداً ، وكان حريصاً على أن تنتهى هذه المناقشة بأسرع ما يمكن ، لذا قال وابتسامة صفراء ترتسم على فمه :

- (لا تحزنى يا حبيبتى .. لن أبقى فى بيروت أكثر من أسبوع .. وسوف أعود بعدها أكثر صحة وعافية ..).

وجفف عرق جبينه قائلاً :

- (هناك فى بيروت نوع من البنور يقولون إن طحنه ومزجه باللبن وشربه فى الصباح قبل الفطور يقوى الهمة ، ويعيد الشباب ..).

---

تضرجت وجتتها البضتان بالحجل وتمت:

- (كل ما أريده أن تأتى إلىّ سليماً معافى .. أريدك أنت وكفى ..).

وشرد بضع لحظات وقال:

- (قال لى الحاخام (موسى أبو العافية) أنه لن يردّ إلىّ قوتى ويرضى ربي، إلا الفطير المقدس، فطير عيد الفصح ..).

ارتجفت مفاصلها، وشحب وجهها، وتشبّثت به قائلة:

- (بالله عليك لا تطرق هذا الحديث .. إننى أخاف ..).

قال فى إصرار وعنف:

- (تلك أوامر (التلمود) .. ودم المسيحى الممزوج بالدقيق له فعل السحريا امرأة ..).

ثم عاد يقول:

- (ويحى ! ماذا قلت؟؟ ما كان يجب أن أتفوه بمثل هذا الكلام .. إنه خطير .. خطير للغاية ..).

قالت كاميليا متوسلة:

- (وأنا لا أريد أن أسمع منك ..).

٤

ليك يا دمشق تسكره الظلمات، وآلامك يا دمشق ترقبها  
النجوم الساهرة في طول السماء وعرضها، وذكريات  
الأمس يا مدينة التاريخ العظيم تفيض بالدماء والجراح  
والمعارك التي لم يزل يتردد صداها عبر السنين، والعس يا  
دمشق يجوبون طرقاتك الخالية المقفرة في صمت ويقظة،  
مخافة أن ترتفع رأس باعتراض، أو تنطلق صيحة تطالب  
بالحرية، أو يشب فارس بمدفعه يبدد السكون، ويحى  
الموات، ويشعل الحرب من جديد، الغزو والامتيازات  
الأجنبية يشقلان على كاهلك، ويحجبان وجهك المشرق  
العريق ويمرغانه في التراب، لكنك لم تستلمى للفناء ولم  
ترضخى للذل .. لأنك يا دمشق من قديم قلعة الأحرار  
والإيمان .. ومنازة الإسلام والبطولات ..

دمشق نائمة في الظاهر، لكن عيونها مسهدة، والدموع

---



تسكب على الخلود، والمسجد الأموي قد أوى إليه بعض العباد يضرعون إلى الله، ويطيلون السجود والركوع، ووالى دمشق من قبل محمد على باشا (شريف باشا) ينام فى قلعته مطمئن البال، هادئ النفس، بعد أن انكسرت حدة المقاومة وهُزمت الجيوش المحلية والتركية، وتمزقت السكينة، واندحر الأمن، لكن حارة اليهود لها شأن آخر، لا يضيرهم أن يأتى حاكم، أو أن يذهب حاكم، فكل حاكم يأتى يدينون له بالطاعة والولاء، ويبذلون له الذهب والنساء، ويتطوعون بإفشاء أسرار المناضلين، ويشون بأعدائهم فى الدين، أو منافسيهم فى التجارة، أو مناوئهم فى الحرب الخفية... الدس... السموم... الواقعة هى أسلحتهم التى لم تتغير ولم تبدل على مدار السنين...

بيت (داود هرارى) يقبع تحت الظلمات بينائه الشاهق... الكل نائم... الخدم ينكمشون من شدة البرد فى حجرة ضيقة للرجال، وأخرى للنساء، وأطفال (هرارى) يغطون فى سبات عميق، لكن هناك حية تسعى... ها هى (كاميليا) تسلل إلى حجرة فى آخر الدحليز الأرضى، لا

يقربها أحد .. وللدھليز باب صغير في الإمكان إغلاقه بإحكام ، وفي نهاية الدھليز حجرة صغيرة قنطرة تمتلئ بالأتربة وبعض المخطوطات القديمة والكتب المقدسة ، وغيرها من طبعات التلمود الصفراء الرثة وبعض الأغراض الأخرى .

كانت كاميليا تلبس ثوباً شفافاً يبرز مفاتن جسدها ، وفي يدها شمعة يتحرك لهبها المرتجف فيرسم على الحيطان ظلالاً تبدو كالأشباح الخرافية ، وأخذت كاميليا تنظر يمنة ويسرة ، وتتقل في قلق من مكان إلى مكان ، وأخيراً وضعت الشمعة على رف صغير في ركن من أركان الحجرة ، الانتظار يرهق أعصابها ، ويكاد يحطمها ، ترى لماذا لم يأت ؟ أقسمت بينها وبين نفسها أن تدمره .. تسحقه .. تقضى عليه قضاء مبرماً إذا أخلف وعده ولم يحضر .. اللحظات القصار تبدو كدھر طويل .. وهي تريد أن تفعل شيئاً كي يبدد سأمها وضيقها وتهدي من خفقات قلبها ، ونظرت إلى جوارها فوجدت كتاباً قديماً يغطيه الغبار فتأولته وأخذت تقرأ : (الطور يورد) .

هو كتاب ألفه العالم الربانى يعقوب، وهو أحد أئمة اليهود وأراؤه معتبرة فى المسائل الدينية، وجاء فى البند ١٥٨ إنه (محرم على اليهودى أن ينجى أحداً من بقية الأمم من البشر التى يكون وقع فيها، وعلى الطبيب اليهودى ألا يداوى أعمى (غير إسرائيلى) مطلقاً ولو بالأجرة إلا إذا أراد ضرره أو الانتفاع بماله، فإذا كان مبتدئاً فى هذا الفن، فليتعلم مداواة باقى الأمم، ويجوز إجراء المعالجة مجاناً فى هذه الحالة...).

تضايقت كاميليا من هذه الكلمات، فقذفت بالكتاب بعيداً وعادت تنظر إلى باب الدهليز الضيق المظلم، وتحاول جاهلة أن تسمع وقع خطوات الرجل القادم، لكن أحداً لم يأت... لقد مضى على الموعد أكثر من نصف ساعة، ما معنى ذلك؟ إنها تكاد تحزن... لا يمكن أن يخدعها هكذا... لو فعل ذلك لذبحته، هى على استعداد أن ترتكب أية حماقة من أجل تحقيق رغباتها الأئمة، وإشباع ظمئها وجوعها. وبطريقة لا شعورية تناولت مخطوطاً آخر مكتوباً بخط اليد الأسود، وأخذت تقرأ دون أن تدرك معنى لما

تقرأ: (لا تعتبر اليمين التي يقسم بها اليهودى فى معاملاته مع باقى الشعوب يمينًا ؛ لأنه كأنما أقسم لحيوان ، والقسم لحيوان لا يُعد يمينًا . . فإذا اضطر يهودى أن يحلف لمسيحى فله أن يعتبر ذلك الحلف كلاً شئ . . على أنه لا معنى للتراع القائم على الأموال بين اليهودى وغير اليهودى . إن أموال المسيحى ودمه ملك لليهودى وله التصرف المطلق فيها، وله الحق، طبقاً لقواعد التلمود، فى استرجاع تلك الأموال).

لم تشعر كاميليا لهذه الكلمات بمذاق، أو معنى، على الرغم من معرفتها بأنها من قواعد الديانة اليهودية التى تجلها وتحترمها، بل وتؤمن بها أعمق الإيمان . . وعادت تنظر من جديد إلى الدهليز المظلم والباب الصغير، وأشباح الظلال تتراقص على الحيطان الجرباء الرطبة ذات الرائحة المميزة . . إنها تكاد تختنق: (هذا الملعون لماذا لم يأت؟ لئن رآته عيناي لأنشب أظافرى فى جسده وفى عينيه لا . . لا . . إن عيونه جميلة تنضج بالحبيوة والرجولة . . وليست ذابلة ميتة كعيون زوجى . .).

تنهدت فى تعاسة . . وأخذت تبكى وتضرب يديها  
ورأسها فى سرير قديم لكنها سرعان ما استعادت هدوءها  
وجفت دموعها . . واختطفت كتاباً ثالثاً صغيراً وأخذت  
تقرأ فيه . . لكن الكلمات شذتها هذه المرة . . (ماذا أرى يا  
إلهى ؟) فلتقرأ بصوت مرتفع :

وقال الربى كرونر : (إن التلمود يصرح للإنسان اليهودى  
بأن يسلم نفسه للشهوات إذا لم يمكنه أن يقاومها، ولكنه  
يلزم أن يفعل ذلك سرّاً لعدم الضرر بالديانة، ولقد ذكر فى  
التلمود عن كثير من الحاخامات مثل الربى (رايى) والربى  
(نحمان) أنهم كانوا ينادون فى المدن التى يدخلونها عما إذا  
كان يوجد فيها امرأة تريد أن تسلم نفسها لهم عدة أيام . .  
وجاء فى التلمود أيضاً عن الربى (اليعازر) أنه فتك بكل  
نساء الدنيا، وأنه سمع مرة أن واحدة تطلب صندوقاً ملائماً  
بالذهب كى تسلم نفسها فحمل الصندوق وعبر سبعة  
شلالات حتى وصل لها . . وجاء فى التلمود أن هذا  
الحاخام لما توفى صرخ الله فى السماء قائلاً تحصل الربى  
(اليعازر) على الحياة الأبدية . .).

وعادت كاميليا تقرأ هذه الكلمات المثيرة مرة أخرى بإعجاب .

كيف تكون هذه الكلمات فى الكتب الإسرائيلية المقدسة دون أن تدرى عنها شيئاً؟ إن زوجها لا يذكر لها شيئاً عن ذلك ولا يخبرها إلا عن الفطير المقدس . .

وتوقفت عن التفكير حينما سمعت صرير الباب . .

ها قد أتى مراد القتال . .

(أيها الملعون كدت أفقد عقلى . . ) .

تشبثت به كأغلى أمنية تفوق الدين والدنيا بالنسبة لها . . وشربت مرة أخرى . . وشرب مثلها من خمر معتقة ، كان يرتحف . . لكنها قالت فى سخرية عابثة : (سوف تحصل على الحياة الأبدية كالحاخام اليعازر . . تصوريا مراد أننى غريبة . . غريبة جداً! أحياناً كثيرة أحب القذارة . . هذه الغرفة بما فيها من تراب وظلام وأتربة وصرارير وأغراض قديمة . . تلذلى . . تبعث النشوة العارمة فى كيانى . . أكاد أتقيأ من سرير داود النظيف وملمسه الحريرى ، وأكره الأثاث الفاخر فى غرفة نومى . . اشرب هذا الكأس . . لا

تخف، لن يأتي أحد إلى هنا مطلقاً . . . إننى أعنى ما أقول،  
لقد رتبت كل شيء . . . النسوة فى دمشق يستمتعن بالحياة  
الخلوة فلم أحرم أنا منها؟ اللعنة على كل شيء . . . لدى المال  
والعطور والمجد . . . لكنى أبصق على كل شيء لأنى أشعر  
بالحرمان، ولا أعرف للحب معنى مع داود . . . إنه ليس  
رجلاً ومع ذلك فأنا مضطرة لاحترامه . . . يا مراد هذه  
الحجرة القذرة الصغيرة هى جتى الموعودة، لنشرب  
ونستمتع بالحياة، وأنت لا تخف . . . فقد جاء فى التلمود أن  
(اليعازر) قد فتك بكل نساء الدنيا . . . ولم يحرقه الله  
بالنار . . . وإنما تحمّل على الحياة الأبدية . . .).

دمشق نائمة . .

والظلام كالكابوس المرهق . .

وحارة اليهود تتلوى كشعبان كبير . . فى جوفه  
الجواهر . . والقطع الذهبية . . وزجاجات الخمر . .  
وغانيات يلعبن بالنار . . ويرقصن رقصات غجرية . .  
وحاخامات يتحدثون عن الفطير المقدس . . ودم  
المسيحين . . وعيد الفصح الذى اقترب . .

(إنى أكره هذا الرجل كراهية لا مثيل لها . .).

هذا ما كان يردده سليمان الحلاق دائماً أمام أصدقائه من اليهود، وكان يقول ذلك عن الأب (توما) أمام صديقه (مراد الفتال) ويؤكد عليه فى وجود آل هرارى، ويصرح به فى فخر أمام الحاخام موسى أبو العافية، والحاخام موسى سلانيكلى . . وكان يحاول أن يعلل كراهيته للقيس تعليلاً دينياً، فاليهود يكرهون المسيحيين ويعتبرونهم وثنيين، ويستباحون أموالهم ودماءهم، بل يضعونهم فى مرتبة تساوى مرتبة الحيوانات والبهائم، حسب تعليمات (التلمود)، لكن السبب الحقيقى الكامن وراء كراهية سليمان الحلاق للبادرى توما هو المهنة . . أجل . . لأن سليمان يزاول مهنة الطب، والأب توما يمارسها هو



الآخر، لكن الجميع يعرفون أن توما يمارسها على أسس علمية، وتجربة طويلة، أما سليمان فهو محدود الكفاءة، أغلب نشاطه يدور في مجال (فصد الدم)، ولا يلجأ أحد إلى سليمان إلا في حالة تعذر وجود الأب توما، أو انشغاله بأعمال كثيرة، ومن ثم فلا مناص من أن يلجأ المريض إلى سليمان مضطراً.. ويقول سليمان لزوجته (تصورى هذا المأفون المدعو توما يعالج الناس جميعاً بالمجان! إنه يضحي في سبيلهم بماله ووقته دون أن يجنى أية فائدة، والناس يثقون به. عندما أتذكر السنوات الطويلة التي قضاها هذا الأبله في خدمة الناس دون أجر أكاد أجن، لو تقاضى أجراً لكان الآن يملك مئات ألوف الألوف من الديناير الذهبية، الأهم من هذا كله لو لم يكن هذا الرجل موجوداً في الشام لكنت ربحت الكثير من وراء المسلمين والمسيحيين هنا.. لكن ذلك الملعون أغلق باب الشراء والمجد في وجهي.. ولن أنسى ما حييت أنه أساء إلى أكثر من مرة. أجل.. ستقولين إنه لا يسىء إلى أحد. لكنى أؤكد لك أنه كثيراً ما كنت أصف دواء لمريض فيأتني

هو ليغير الدواء ، لم يكن يتكلم عنى بشىء ناب لكن مجرد إهمال علاجى أو تغييره يعنى أشياء خطيرة ، معنى ذلك أنى جاهل ، كل الناس يسخرون منى ، ويتهامبون قائلين : سليمان لا يعرف شيئاً فى الطب سوى فصد الدم . آه يا زوجتى . . ربما أفضل أن يتهمنى الناس فى شرفى ولا يتهمونى فى كفاءتى فى مهتى . . . ) .

ومع ذلك فقد كان سليمان يعيش فى بحبوحة من العيش ، ويحاول جاهداً أن يتغلب على أحزانه وهواجسه ، وكان ينسم فى وجه الأب توما كلما تصادف ولقيه فى الطريق العام ، أو اجتماعاً معاً عند مريض . وذات مرة تجرأ سليمان وقال له :

- (أيها البادرى الصالح . . يجب أن تتقاضى أجراً على جهودك الدائبة فى الليل والنهار . . الأجر يجعل لعملك معنى وقيمة . . حينما تقدم للناس شيئاً بلا ثمن فإنهم يزهدون فيه . . لا يقدرونه حق قدره . . ) .

ابنم الأب توما فى رقة وقال :

- (أى سليمان لا أريد أجراً ، ولا أنشد مجداً بين

---

الناس، إن عينيّ متجهتان دائماً صوب السماء، من أجل المسيح أعمل... وفي سبيل التعساء من بنى البشر أجاهد... والسعادة التى تتدفق بين حنايا الضلوع هى الثواب الكبير... إنها نعمة كبرى... فليبارك الرب مسعانا...).

كلمات البادري كان لها وقع السهام على قلب سليمان، وابتسامة البادري النقية أثارت حتى سليمان الحلاق، فتمنى أن ينقض عليه ويخنقه، وهدوء الرجل أشعل عاصفة من الحقد فى قلبه، لكن سليمان بادلته ابتسامة بابتسامة، وإن كان التناقض كبيراً بين الابتسامتين، وأثنى على فضيلة الأب وحسن إخلاصه ودعا له بمزيد من التوفيق والنجاح...

قال سليمان لزوجته :

- (إننى أعتقد أن صلحاء هذا العالم هم البلهاء... لو لم يكن لكل شئ ثمن فى هذه الحياة لما وجد الملايين الرغيف... انظرى... إننى أزنُ عملى بمقدار ما أسعى من خطوات، ويقدر ما أقضى من ساعات، وعلى أساس ما أحققه من نجاح، هذا هو الصواب فى رأى، لكن هناك

نقطة هامة يا زوجتى ، إننى لم أصل بعد إلى الهدف المنشود ، ما معنى ذلك ؟ ليس له سوى معنى واحد هو أن العمل الشريف وحده لا يستطيع أن يصعد بالإنسان إلى قمة المجد ، لابد إذن من الوثب .. القفز العالى .. لابد من التفكير لكى أصل إلى الهدف الأعظم .. أرانى مضطراً لأن أكذب وأمالى وأنافق وأسرق بل وأقتل فى بعض الأحيان . ألا ترين كيف حكمت أوروبا العالم وسيطرت عليه ؟ وكيف استطاع الإنجليز أن يثبتوا أقدامهم فى الهند .. ؟ لابد من الخوض فى دماء البشر وجثث الضحايا .. الأقوياء يتصرفون .. وليست القوة سيفاً ومدفعاً .. لكنها عقل يفكر .. ولكنها قوة إرادة تسحق هواجس النفس وضعفها ، ونسخر من كل القيم النبيلة .. الجسور وحده يتصر ويرى .. ويبلغ قمة المجد ..).

واحتقن وجه (سليمان الحلاق) وزمجر قائلاً :

- (هأنذا ما زلت حلاقاً حقيراً فى حارة اليهود .. مهنة نافهة حقيرة يستطيع أن يتعلمها أغبى خلق الله ..).

---

ثم لمعت في عينيه بارقة انتصار وقال :

- (لكن الأمل لم يزل حياً في قلبي .. بيني وبين النصر  
خطوة واحدة .. قال لي داود هراري سوف نضرب يا  
سليمان ثلاثة عصافير بحجر واحد .. أولاً سنحقق أمراً  
دينياً مهماً، ثانياً نقضى على منافس خطير، ثالثاً ستربح يا  
سليمان أنت بالذات مالاً وفيراً ..).

قالت زوجه في دهشة :

- (أنا لا أفهم شيئاً مما تقول يا سليمان ..).
- (ليكن .. فقد اجتمعنا .. وأصدرنا أمرنا ..).
- لوت الزوجة شفتها السفلى في حيرة :
- (تزيدني همّاً وغموضاً ..).
- (إنه أمر سرى لا يخص النساء ..).
- دق قلبها في توجس وقالت : (إنى خائفة ..).
- (الخوف لا يحقق نصراً لا يصنع مجدداً يا امرأة ..).
- (من خاف سلم يا زوجي).

- (لو اعتصمت بالخوف لبقيت واقفاً فى مكانى طول حياتى دون تفسير حتى تجيف جشتى .. وأموت كالكلب ..).

وعاد سليمان إلى حجرته وحيداً يفكر، أخذ يتصفح الوجوه التى التقى بها منذ ساعات فى كنيسة الإفرنج، إنهم من عليّة القوم وكبرائهم؛ الحاخام موسى أبو العافية، الحاخام موسى سلانيكلى، داود هرارى وأخواه هارون وإسحاق، يوسف هرارى، يوسف لينبادو .. ثلة من رجال الدين ورجال المال. فى هذا الركب يجب أن يسير سليمان، ومع هؤلاء الكبار يجب أن يتبوأ مقعده، ذلك مكانه الطبيعى، فليفعل أى شيء، إنه بذلك يلبي إرادة الله، ويحقق ذاته ويكسب المال، والمحركات كلها فى طيّ الكتمان، كل شيء قد تم رسمه بدقة متناهية، وما هى إلا ساعات حتى يصبح سليمان إنساناً آخر .. لن يترك (محل الخلاقة) .. سيقى كما هو سليمان الحلاق فى الظاهر، لكنه فى الحقيقة قد ولج باب الجنة الموعودة .. ونال ما يشتهى .. وأصبح رجلاً ذا قيمة .. وردد فى سعادة:

(إنه مبلغ كبير جداً . . كبير لو حَلَقْتَ رؤوس أهل الشام  
جميعاً لما أمكنتي الحصول عليه . . ) .

وأخيراً ذهب إلى فراشه ونام، كان يردد أثناء نومه (إنه  
مبلغ كبير . . أكبر صفقة في حياتي . . ) .

وكانت زوجته تربت على رأسه، وهو يغط في نومه،  
وتقول: (مسكين سليمان . . فليحقق الله لك ما تبتغيه) .





على الرغم من أن الوقت كان عصراً وشهر فبراير (شباط) في بدايته، إلا أن الجو كان دافئاً، والسماء صافية، ودير (البادري توما) رائق هادئ بسيط الأثاث تفوح في جنباته رائحة عطرية، نتيجة لاحتراق العيدان الرفيعة ذات الأريج، والتي تبعث بخيط رفيع من الدخان الأزرق. كان البادري توما يعد نفسه للخروج وقد ارتدى ثوبه الأسود، ولف على وسطه الحزام الأبيض، وهو لا يعدو عن كونه حبلاً نظيفاً بسيطاً، وارتدى طربوشه المعروف، وكان يقف إلى جواره خادمه الأمين (إبراهيم عمار) بعد أن أدى صلاته، وفجأة قال الخادم إبراهيم:

- (أبتاه...).

التفت توما إليه، وقد لاحظ رنة حانية عاطفية في نبرات

صوته:



- (ماذا يا إبراهيم؟؟) .

قال خافض الرأس :

- (أريد أن أكون تقياً مثلك ..) .

ابتسم البادري في ودّ وهمس وعيناه تنظران إلى الأفاق  
الرجبة :

- (من يدري؟؟ قد تكون أفضل منى عند أبينا الذى فى  
السموات ..) .

قال إبراهيم :

- (متحيل ، إننى أعرف نفسى جيداً .. الخطايا القديمة  
تغرقنى من أخصص قدمى حتى قمة رأسى ..) .

قال البادري فى رضى :

- (هذا بداية الطريق ..) .

- (لكنى يا أبتاه أريد أن أجيد القراءة والكتابة ، أتمنى أن  
أحفظ كل الكتب المقدسة الموجودة لديك عن ظهر قلب ..  
أريد أن أتقن العربية والعبرية واللاتينية والفرنسية .. أريد أن

أعرف الطب . . وأعظ الناس . . أريد أن أخطب (السيد)  
بكل لغة . . بقلبي . . وعملي ولساني وقلمي . . إن بداخلي  
طاقة كبرى . .).

وعاد البادري يربت على ظهر خادمه قائلاً:

- (أى بنى الحبيب ، الله يفهم لغتك دون أن  
تتكلم . . إنه يعلم خفايا القلوب . . الحفاة العراة من  
الصيادين والجهلة . . فتح لهم بابه . . أصبحوا حوارين  
لولده المخلص . . وأخذت الدنيا عنهم المعرفة والنور . .  
إن يكن قلبك نقيًا . . تفتح لك أبواب السماء وتصير  
الأرض كلها فى قبضة يدك . . ولا حدود لقدرة  
المؤمن . . لأنها من قدرة الله . .).

ألقي إبراهيم بنفسه بين ذراعى البادري (توما) وأخذ  
يتحبب ، فجفف له دموعه وأعاد إليه الأمل والاطمئنان ،  
وظل معه حتى هدأت نفسه تمامًا ثم قال :

- (إننى ذاهب الآن يا إبراهيم لألصق إعلانات مزاد تركة  
(ترانوبا) . . إنهم أصدقائنا . . وسوف أذهب إلى حارة

---

اليهود كى الصق الإعلانات أو أغلبها هناك، وسأخبر صديقى الحميم (داود هرارى) بهذا الأمر ..).

قال إبراهيم :

- (أتظن أنه من الضروري أن أتى معك .. ؟).

- (لا .. لتبقى أنت لتعد طعام العشاء .. ويكفى أن نحضر لى حقيبتى الصغيرة، فقد يتدبنى بعض المرضى لإسعافهم أو علاجهم، ما أعظم أن يداوى الإنسان الأرواح والأجسام، ولكم كنت أتمنى أن تكون معرفتى بالطب أكثر من ذلك ..).

تناول البادرى حقيقته، وأدى صلاة قصيرة ثم التفت إلى خادمه إبراهيم عمار قائلاً :

- (لن أبقى هناك طويلاً، فأنا أشعر برغبة فى الراحة .. وأرجو أن أجد فرصة للقراءة .. عندما أقرأ أشعر براحة كبرى .. فلياركك الله يا بنى الطيب .. وليسد خطك ..).

وانطلق البادرى يخب نخباً صوب حارة اليهود.





كان البادري يشق طريقه عبر حارة اليهود، وعلى الرغم من أنه اقترب من الستين إلا أنه كان بادی النشاط، تُرى ملامح السعادة على وجهه الأشقر، وكان الناس يحيونه من آن لآخر فيرد التحية بابتسامة حلوة، أو يلوح بيده شاكرًا، أو ينطق بكلمة شكر مهذبة، الجميع يعرفون البادري توما، ليس في حارة اليهود وحدها أو دمشق وحسب، بل إن الرجل لشُد إليه الرجال من جميع أنحاء بلاد الشام، تقديرًا لطبه وفته، وإيمانًا ببراعته وخلقه الحسن.

ونظر البادري إلى (داود هراري) من بعيد فابتسم في رضى، إن داود صديقه الحميم، وهو رجل طيب معروف أمام الناس بالصلاح والاستقامة، حتى إنهم كانوا يطلقون

---

عليه (اليهودى الصالح) ، وبشّ داود لمقدم توما ،  
واستقبله فاتحاً ذراعيه ، واحتضنه فى حب ، وقبل وجتيه  
ولحيته ، مما جعل البادرى يغمغم (صديقى وحبيبى  
داود) ، وكان يقف خلف داود عدد من اليهود المعروفين :  
الحاخام موسى أبو العافية ، والحاخام موسى سلانكىلى ،  
وهارون وإسحاق ويوسف هرارى ، ويوسف لينبادو ،  
وتتمم الحاخام سلانكىلى :

- (إن صداقتكما مخيفة . . لكم نخاف على داود أن  
تخرجه من دينه أيها الأب توما ، وتدخله فى ديانتك) .

ضحك الجميع بينما رد البادرى قائلاً :

- (كلنا إخوة) .

وقال داود :

- (جئت فى وقتك ، لدينا ولد نريد أن تعطى له طعاماً  
ضد الجدرى الآن . .) .

- (من حسن الحظ إن معنى الحقيقة ، غير أن معنى أيضاً  
بعض الإعلانات أريد إلصاقها على باب الكنيس) .

---

قال داود:

- (هيا بنا لإعطاء الطعم أولاً.. وستكون هناك فرصة لشرب الشاي، ومجاذبتك أطراف الحديث.. إنى فى شدة الشوق للقياك، لم أعد أطيع فراقك).

وسار الرجال فى موكب مهيب يتقدمهم البادري وداود والحاخامان الكيران، إنها صورة للتسامح والمحبة بين أتباع دينين عرف العداء الشديد بينهما من قديم الزمان، منذ العشاء الأخير للمسيح.. ودلفوا إلى بيت داود عبر الباب الصغير، واجتازوا الممشى الضيق المعتم، وانحرفوا صوب المربع الجديد.

لو قيل للبادري إن البحار هاجت وماجت واشتعلت أمواجهاً نيراناً فجأة لصدق الأمر، أما أن يرى صديقه الحميم اليهودي الصالح داود يكشر عن أنياب الغدر، وتنقلب سحته الطيبة فجأة إلى سحنة شيطان شرير، ثم يقترب منه يريد أن يفترسه، فهذا أمر لا يمكن تصديقه، تتمم البادري (ماذا جرى ولم؟) لم يجب داود بشيء. نظر

البادري حوَّاليه سائلاً الرجال : (هل تصيبه هذه اللوثة من  
آن لآخر .. لم أكن أعرف).

وفي لحظات .. كان البادري مغللاً بالحبال ، لا يستطيع  
الحركة .. وبدأ يشعر بالام الحبال تحزّ في جسده الرقيق ،  
وهمس في دهشة وقد شحب وجهه : (أنتم أيضاً تشاركون  
داود فيما يفعل ؟) ونفض البادري رأسه ، وفتح عينه جيداً  
وهتب في استغراب :

- (هل أنا في حلم أم في يقظة ؟ أيها الرجال الطيبون ماذا  
تنوون أن تفعلوا بي ؟).

قال الحاخام سلانكيلى ساخراً :

- (أنت مقدم للمحاكمة).

- (لكنكم تمزحون مزاحاً ثقيلاً لا يليق بكم ولا يليق بي).

- (زعمت أنك تطمع في تحويلنا عن ديانتنا إلى  
المسيحية ، أتقر بذلك ؟).

قال البادري وأمارات الألم ترسم على وجهه وفي  
عينه :

- (نحن لا نسوق الناس سوقاً إلى بابه وحرية الاختيار للجميع، وصاحب كل دين، أى دين، يدعو الناس للهداية بطريقته السلمية.. هكنا أمرنا السيد المسيح).

وضحك الرجال فى هستيرية وقال داود:

- (حسنًا، إن ديننا يأمرنا بأن نسفك دمك، أترانا نطيعه أم نخالفه؟).

قال البادرى وقد دق قلبه بعنف:

- (إنك تمزح يا داود!).

أخرج الحاخام سلايكللى كتاباً صغيراً من جيبه ثم قال:

- (إذن فلنقرأ كلمات التلمود عن الفطير المقدس المعجون بدم مسيحى.. لنقرأ معاً...).

وأخذ الحاخام يقرأ بضعة سطور، وعيون البادرى تروح ونجىء، والدموع تبلل أهدابه، ولحيته ترتجف، وتمتم:

- (أيها الرجال.. أنتم تلعبون لعبة خطيرة، وتفتحون الطريق لفتنة كبرى.. لقد سمعت شيئاً عن ذلك التقليد



السيئ، لكنى لم أكن أصدق . . ليست هذه كلمات التوراة، لقد دسّتها عليكم بعض الحاخامات الجهلة حقاً على بنى البشر، وانحرفاً بالديانة عن مجراها الصحيح، انظروا فى الأمر جيداً . . أنا لم أسئ إلى أحد منكم . . تدبروا . . إن القتل جريمة بشعة لا يقرها عرف ولا دين ولا قانون).

قال الحاخام موسى أبو العافية :

- (لسنا فى حاجة لأن تعلمنا أمور ديننا . . إن سفك الدم هو تذكار لما أمر الله بنى إسرائيل بأن يلطخوا أبواب بيوتهم بدم الحمل المذبوح فى عيد الفصح عندما كانوا تحت عبودية فرعون).

هتف البادري قائلاً :

- (لكن أيها الأخ المعظم، التوراة نزلت قبل أن يأتى المسيح، وعبودية فرعون لكم قديمة، فكيف يأتى فى الديانة شيء يمس المسيحيين قبل أن يوجدوا؟؟ إن أى عاقل متبصر يستطيع أن يتبين فساد ذلك . .).

تدخل الحاخام سلانكى قائلاً:

- (أسباب سفك الدم عندنا ثلاثة .. أولها كراهيتنا للمسيحيين الذين هم بمثابة حيوانات أو وثنيين كفرة مستباح قتلهم ، وثانيها أنه قربة إلى الله ، وثالثها أن للدم المسيحى فعلاً سحرياً فى بعض الأمور السرية ..).

وعند المقطع الأخير تنبه داود ، تذكر عجزه الفاضح أمام زوجه الجميلة (كاميليا) ، وتذكر أن الفطير المعجون بدم المسيحى يرد إليه شبابه الضائع ، وحيوته الغاربة ، قد يدخل على حياته فوائد جمة تحقق له السعادة فى الدنيا والآخرة ، قال داود ساخراً:

- (اغفر لى يا أبته ..).

- (وكيف أغفر لغادر يتجنى على الله؟؟).

- (من عادتنا يا أبته أن نبكى على خراب اورشليم .. ولا بد أن ندهن الجبهة من جهة الصديقين برماد الكتان المنفوع فى دم مسيحى ..).

طأطأ البادرى توما رأسه ، وأظلمت الدنيا فى عينه ، لم

يكن يدرى ماذا يفعل، ووقفته أمام الموت رهيبه، وأشد منها  
إزعاجاً أن ترتكب الخطيئة الكبرى باسم الدين، وتذكر  
اللحظات المذهلة التي ساقوا فيها المسيح إلى الميدان الكبير،  
يا لها من لحظات!! وشعر البادرى بقليل من الراحة ثم تطلع  
إلى السماء.. ناجاها بقلبه ودموعه وسمع داود يقول:

- (إننا نحتفل بذكرى صلب الناصرى (المسيح) دائماً،  
لم يكن الناصرى هو المسيح الحقيقى.. وتأكد أيها الأب أن  
المسيح الحقيقى سوف يأتى يوماً من أجلنا، وعند ذبحك  
سنقول: (هكذا فعلوا بنى النصارى الذى ليس بنى  
حقيقى.. سيأتى فى المستقبل أناس عظماء مع المسيح المتظر  
راكبين الخيول والجمال فينقذوننا من الأسر..).

صرخ الأب توما بأعلى صوته:

- (أيها الكفرة المخرفون..).

قال الحاخام أبو العافية:

- (اربطوا فمه حتى لا يصيح..).

وعندما ربطوا فمه ، تمتم الحاخام سلانيكلي :

- (يقول التلمود : من العدل أن يُقْتَلَ الإسرائيلي بيده كل كافر ، لأن من يسفك دم الكافر يقرب قرباناً إلى الله . . ) .

كان النسرة والأطفال فى بيت هرارى محتجزين فى الجناح الشمالى للبيت ، والعائلات منهن كن يعرفن ماذا يجرى هناك ، وجلسن صامتات ، وحينما انبعث أنين الضحية الثالثة ، وقفت إحداهن والفرح المجنون يرتسم على وجهها المكتنز المحتقن وقالت :

- (أسمعون الأنين؟؟ اضحكوا واسعدوا .. دقوا الطبول وارقصوا ورددوا أجمل الأغاني الدينية .. هذا يوم المنى .. أسعد أيام العمر .. ) .

وكم كانت دهشتهم حينما رأوا (كاميليا) زوجة داود تلف حول وسطها شالاً حريراً ثم ترقص فى الحجرة الواسعة ، وسرعان ما تماوجت حركاتها مع تصفيق الأيدي ، ودقات الدفوف ، وانتشى الأطفال الذين لا

يعرفون ما يجرى بروعة ما يشاهدون، فأخذوا يشاركون فيه فى بلاهة، ويضحكون ويمرحون ويقلدون النسوة. لم يكن غريباً أن يحدث الغناء والرقص فى بيت يهودى، إذ المعروف فى دمشق كلها أن اليهود يقبلون على المرح فى كثير من الأوقات ويمشقون الخمر والرقص والغناء، بل ويقومون ببعض التمثيليات القصيرة الكوميديّة تقليداً لأهل أوروبا، إلى جانب أن البيوت المجاورة كلها يملكها اليهود، فلن يثير الموضوع شيئاً من الشك أو الريبة بل إنه سيغطى على صياح الضحكة إذا فكر فى طلب النجدة أو الاستغاثة. . بعد أن انتهت كاميليا من الرقص هرولت إلى حجرتها الخاصة لتغير ملابسها، وبصرت بمراد القتال وهو يهرول متجهاً صوب باب البيت فدعته إليها فعاد مرتبكاً:

- (اتبعنى إلى حجرتى . .).
- (سيدتى إن داود بالبيت . .).
- (أيها الأحق . . اتبعنى . .).
- (لقد أرسلنى فى أمر مهم . .).

- (دقيقة واحدة وترجع بعدها ..).

تلقت حواليه فى خوف، لم يجد أحداً، النسوة معزولات فى مكانهن لا يصرح لهن بالخروج باستثناء كاميليا، والرجال متجمعون حول الأب توما الذى أحكم وثاقه، ولهذا تبعها مسرعاً ودلف إلى حجرة نومها، وأغلقت الباب، ثم تعرت من ملابسها وتمطت أمام المرأة وقالت:

- (انظر يا مراد .. هذا لك كله ..).

- (بالله عليك اتركينى .. الأمر خطير .. وجسدى كله يرتجف).

- (أعرف ذلك .. هل ذبحوه؟).

- (ليس بعد ..).

اقتربت منه وطوقته بذراعيها وقالت:

- (لكم أحبكم .. ضمنى إليك بشدة .. إننى لا أنسى اللحظات التى أقضيها معكم .. أعطنى بضع قبلات

---

عابرة .. لقد شربت كثيراً .. رأسى يدور .. تمنيت أن  
يحترق العالم كله وأبقى أنا وأنت ..).

قال وهو يتملص في رقة :

- (سيدتى .. ليس لدى وقت ..).

ثم نظرت إليه وقد تغيرت سحتها :

- (ما هي المكافأة التى وعلك بها داود بعد إتمام ذبح  
البادرى؟).

- (لم يعدنى بشيء بعد ..).

سدت إليه نظرات وحش كاسر وقالت :

- (زعم أنه سوف يزوجك أستير .. لقد أخبرنى  
بذلك ..).

طأطأ رأسه وتفصد جبينه عرقاً، واشتد شحوب وجهه :

- (هذا أمر سابق لأوانه ..).

ضحكت فى خلاعة وقالت :

- (تستطيع أن تنصرف الآن، لكن ثق أن كاميليا لن

تهزم .. إننى أقوى منكم مجتمعين .. وأنا أعنى جيداً ما  
أقول .. انصرف أيها الكلب .. ولا تتردد كلما دعوتك  
إلى ..).

أعطاها ظهره ثم اتجه صوب الباب لكنها لحقت به  
ووضعت فى يده مبلغاً من المال كبيراً، فابتسم، أما هى فقد  
تردد صدى ضحكاتها المتكررة فى أروقة الحجرة الضخمة  
ذات الرياش الثمينة ..







فى ذات الإنسان ، فى داخله العميق المجهول ، حَبِزَ لا يستطيع الخداع أن يتسرب إليه ، إنها منطقة حرام مقدسة الجنبات ، كأنما أحاطها الله بأسوار وحواجز لا يمكن أن تخترقها قوة الشياطين ، وإلا لماذا يشعر سليمان الحلاق بالخوف الآن ؟ لماذا يرتجف قلب الخادم مراد القتال ، حتى الحاخامات والرجال من أسرة هرارى يؤدون دورهم البغيض وشيء ما داخل كل فرد يقول : ( لا . . ) ويرفض الانصياع ، أليس غريباً أن يحدث ذلك وهم مؤمنون بأن ما يفعلونه إنما يؤدونه كفريضة دينية نادى بها التلمود وأكدها الأبحار ؟ إذن لو كان الأمر أمر دين لما حدث هذا التردد ، ولا داهمهم ذلك الخوف ، ولا أعجزهم الارتباك . . كل واحد منهم يحاول جاهداً أن يقهر تلك التوازغ كى يقضى على التردد والخوف والارتباك ، لقد جلس سليمان الحلاق

فى دكانه منقبض الصدر ، وحينما رأى مراد قادمًا نحوه هب واقفًا وهتف : (هل ألقيتم العملية . . ؟) .

قال مراد وهو يغالب ضعفه ويحاول الظهور بمظهر الشجاع :

- (سيدى يطلبك على الفور . .) .

- (من؟؟)

سدد إليه نظرات ساخرة وقال :

- (داود . .) .

وابتلع مراد ريقه واستطرد :

- (الرجل على الصليب، قد كمنموافاه، وربطوه بالحبال ربطاً محكمًا . . ولن يتراجعوا . .) .

ابتسم سليمان ابتسامة شاحبة وقال :

- (أنا قادم معك . .) .

- (لا . . بل ستأتى وحدك . .) .

- (كنت أريد أن أخبرك . .) .

- (بماذا؟؟).

- (لقد أتى الخادم إبراهيم عمار هو الآخر يبحث عن الأب توما ..).

قال مراد فى لهفة:

- (وأين هو ..؟؟).

أشار سليمان بيده فى اتجاه أحد المنازل اليهودية المعروفة  
وقال:

- (هنا .. قالوا له إن الأب توما بالداخل .. فأسرع  
الخادم .. وسوف يلتقى نفس المصير الذى سيلقاه  
القسيس ..).

وفرك مراد يديه وقال:

- (كل شيء يمضى على ما يرام .. لكنى خائف ..).

ضحك سليمان فى حزن وقال:

- (سوف تتزوج من نحب، أستير فتاة جميلة تستحق أن  
يضحى فى سبيلها ..).

---

شرد مراد إلى بعيد، تذكر كاميليا تلك الشيطانة الجميلة المثيرة، هذه المرأة الغريبة التي شرب من كأسها حتى أتخم، إنه يحبها ويكرهها، يخاف منها ويأنس إلى جوارها، أى تناقض يروح مراد تحته؟ أنا مجرد خادم قد تركلنى غداً . . بل تستطيع أن تدس لى السم وتقضى على فى أى وقت تشاء، لا أدري ماذا أفعل؟ ومع ذلك فأنا أسير فى الطريق . . لا أدري أين تقودنى قدمائى، لكنها فاتنة عجيبة الجمال لعرب . . قاتلة . . أى امرأة تلك!! أستير بالنسبة لها لا شىء . . أستير كالشاة الهادئة . .

قال سليمان:

- (فيما تفكر يا مراد؟ أتخاف مثلى . . ؟؟).

رد مراد قائلاً:

- (لا . . تذكرت ما قاله الحاخام بالأمس قال: لا محبة ولا عدل مع المسيحيين . . من احتقر أقوال الحاخامات استحق الموت . . اعلم أن أقوال الحاخامات أفضل من أقوال الأنبياء . . ومن يجادل حاخامه أو معلمه (فى الدين) فقد

أخطأ، وكأنه جادل العزة الإلهية .. اقتل الصالح من غير  
الإسرائيليين ..).

قال مراد وهو يتسم في لا مبالاة:

- (أعرف ذلك كله .. لطالما رددته الحاخامات على  
مسمع سيدى، كنت أستمع إليهم وأنا أصب القهوة أو أعد  
الترجيلة .. لكنى لا أفكر فى شيء من هذا ..).

- (فيم تفكر إذن؟).

- (فى أستير ..).

- (لسوف تتزوجها ..).

- (هى مسكينة وتعلم كل شيء .. هذه الشاة الصغيرة  
تعرف تصرفاتى وانحرافاتى ..).

هزّ سليمان كتفيه دون أن يفهم شيئاً، بينما هتف مراد فى  
عجلة:

- (لقد نسينا أنفسنا .. أسرع إلى دار داود ..).

- (لسوف أحضر الموسيقى ..).

---

- (لا داعى لذلك) .

ذهب الخواجا (ساتى)، صيدلى المستشفى، إلى دير الأب توماكى بعيد إليه كتاباً كان قد استعاره منه، لكنه فى ذلك المساء (الأربعاء) وجد الدير مغلقاً . . وطرق الباب فلم يجبه أحد، أخذ يطوف حول الدير فلم يسمع صوتاً لصديقه ولا حساً لخادمه إبراهيم . . شىء غريب . . ومع ذلك فقد قرر أن يعود من حيث أتى، وأثناء رجوعه مال على الدير الكبير (تيرسانت) وأخبر الرهبان هناك بأن البادرى توما وخادمه إبراهيم لم يعودا حتى هذه الساعة، فلم يكثرثوا للأمر ورجحوا أن البادرى ربما يكون قد ذهب لمعاونة بعض المرضى، وكثيراً ما يحدث ذلك؛ لأنه لا يرفض طلباً للمساعدة من أحد .

دمشق تنام، والعسس يمضون فى الطرقات يحكمون ستراتهم؛ لأن نذر البرد تلامس أذانهم المكشوفة، وعندما تنام دمشق فهو نوع من النوم غريب؛ لأن الآلاف يتقلبون فى الفراش يفكرون ويدبرون، ويتذكرون الماضى والحاضر، ويحاولون أن يستشفوا حجب المستقبل . .

الأحداث كثيرة .. ولو استطاع أحد الدارسين أن يبحث أسباب الأرق في آلاف البيوت لوجد عجباً .. شاب يحلم بفتاة حلوة أحبها قلبه .. رجل يريد أن يأخذ بشاره، وخيالات الدم تلعب برأسه .. تاجر تملى رأسه بالأرقام وي طرح ويضرب ويقسم، سياسى يخطط لمزيد من السيطرة والنفوذ، ويبحث عن وسيلة لتحطيم أعدائه، فتاة كالزهرة، تحتضن وسادة حريرية وتترنم بأغنية شعبية .. امرأة تخون، رجل يسرق، شيخ يقوم الليل ويضرع إلى الله، سجين ترهقه القيود والأغلال، ويستجد بالسماء كى تفك إيساره .. سكران يضحك ملء شذقيه وكأنه حاز الدنيا بأسرها، مريض يتلوى من شدة الألم، شاب يتراقص من شدة الفرح .. دنيا غريبة ممتلئة بالكثير من المتناقضات والأعاجيب .. لكن الأمور تمضى والموكب يسير .. وهذا الخليط الكبير يعزف سيمفونية ذات نغمات مختلفة .. لكنها تعطى لحناً واحداً مميزاً اسمه (الحياة)، ومن يستطيع أن يدلف إلى دار داود هراوى يرى عجباً .. امرأة تبصق على فراشها الحريرى .. وأطفال يغطون فى نوم عميق، وداود

يتقدم من البادري المربوط ، ويرفع الرباط عن فمه ليعود إلى الحديث المكرر . . ويتلذذ بعذاب صديق العمر . .

- (ماذا تريدون . . ؟؟) .

- (لا شيء . . يا توما . . مجرد استجواب . .) .

- (إنى أشم رائحة الغدر . .) .

ضحك . . وسخرية . . وتبسم داود .

- (نحن أصدقاء يا توما . .) .

- (هذا أسلوب غريب بين الأصدقاء . .) .

- (هناك أوقات يا توما . . لا يعرف فيها الصديق صديقه

ولا الأخ أخاه . .) .

- (لا أفهم . . الناس جميعاً أخوة . .) .

- (الناس بهائم وحيوانات يا توما إلا الإسرائيليين . .

قلت لك ذلك ألف مرة ومرة ، هكنا قال التلمود) .

- (التلمود لم ينزله الله . . الفرق كبير بين كلمات

الله . . وسخافات البشر . .) .

---



التفت داود إلى هارون وقال :

- (الرجل يسىء الأدب وهو على أعتاب الموت ..).

صاح البادري في صبر نافذ :

- (اقتلوني ..).

- (ليس الآن ..).

- (أريحوني من هذا العذاب ..).

- (هذا مشهد يبعث البهجة في النفوس ..).

- (وأنا لا أخاف الموت يا داود ..).

- (لا تخزن .. سأدفنك هنا في بيتي .. سأقرؤك السلام

كل يوم .. ستبقى جثتك هنا إلى الأبد .. سنظل أصدقاء  
برغم الموت وبرغم فظاظتى معك).

همّ البادري أن يتزع نفسه من الوثاق المحكم، وضحك  
الرجال وصاح الحاخام أبو العافية :

- (كمموا فاه من جديد .. ها قد جاء سليمان الحلاق ..).





دمشق المدينة تبدو كالأرملة التعبة، تحاصرها العيون، وتلاحقها الشائعات بعد أن مات عنها زوجها، ودمشق تجلس كابية حزينة تجترّ الآلام، ويمضّها الملل، ويؤرقها الضياع والفراغ، ولذلك كان حادث اختفاء البادري توما وخادمه إبراهيم عمار فرصة تشغل الأذهان، ووسيلة لقتل الوقت والتغلب على الفراغ المميت، ففي اليوم التالي -الخميس- كان الدكتور مسارى، وهو من الشخصيات الأجنبية المرموقة فى دمشق، يجلس فى منزله انتظاراً لعدد من الرهبان وعلية القوم، فقد أعدّ لهم وليمة فاخرة ظهر ذلك اليوم، وحضر الجميع ولم يبق إلا البادري توما. . . وحان وقت الغداء لكن البادري لم يحضر، ولم يبعث باعتذار رقيق كعادته. . . بل لم يعثر له على أثر، وهنا لعب الشك بالنفوس، وعم القلق

جميع الحاضرين ، وليس عجباً أن يحدث أى شيء فى مثل تلك الأيام ، هذه الفترات العصيبة من حياة الشعب تكتظ بالمفارقات الغريبة ، وتحدث فيها العجائب ، وتكثر الانحرافات ، وصاح الصيدلى (سانتى) :

- (أيها الرجال ، الأمر خطير ولا يمكن السكوت عليه) .

وتهاجم الحاضرون ، ثم علا نقاشهم حتى تحول إلى ضجيج واضح ، وقال الدكتور مسارى وقد انتصب شاحب الوجه :

- (شهد البعض أن آخر مرة رأوه فيها كان فى حارة اليهود ..) .

وأدرك الجميع ما يهدف إليه السنيور ، فرد أحدهم على الفور :

- (ماذا أقول ؟ الشبهات تخوم حول اليهود ..) .

وقال آخر :

- (لا تتعجل فى الاتهام ..) .

---

وعلق رجل طاعن فى السن :

- (اثنان من اليونانيين شاهدا خادما البادري يهرول إلى حارة اليهود عند الغروب وقد أخبرهما أنه يبحث عن سيده .. والخادم اختفى هو الآخر ..).

قال الدكتور مسارى :

- (لترفع الأمر إلى القنصلية الفرنسية، فالبادري تحت حمايتها ويحمل الجنسية الفرنسية ..).

حينما بلغ النبأ مسامع القنصل الفرنسى، كان قد انتشر بين أبناء المدينة كلهم، وحدث هرج ومرج، وتدفق الناس من كل صوب نحو دير البادري، وأخذوا يلقون الكلمات جزافاً، وأشارت أصابع الاتهام نحو حارة اليهود (هذه الحارة دولة داخل الدولة)، (هذه الحارة بحر عميق من الأسرار)، (هل نسيتم المذابح التى يقيمها اليهود من أن لآخر باسم الدين؟؟).

وأمر القنصل الفرنسى أحد الرجال أن يصعد سلمًا خارجيًا ويتخطى جدار الدير الذى يسكنه البادري، ودهش

---

الجميع إذ وجدوا أن الباب لم يفلق بالفتاح وإنما بالمزلاج الصغير ، كما وجدوا طعام العشاء مجهزاً في المطبخ بجوار الكانون ، وليس لذلك سوى معنى واحد وهو أن البادري وخادمه كانا قد اتفقا على سرعة العودة لتناول طعام العشاء المعد . . وجال القنصل ومن معه في أنحاء الدير فلم يجدوا أى مظهر من مظاهر الاضطراب أو العبث . . كل شيء في مكانه : الأثاث . . الكتب . . الطعام . . الأدوات . . المال . . الملابس ؛ إذن لم تحدث سرقة أو مجرد محاولة للسرقة . وصاح رجل :

- (أقسم أن البادري وخادمه قد قتلا . . ) .

ورد عليه آخر :

- (ولم يفعلها سوى اليهود) .

ووقف أحد الرهبان من (دير تيرسانت) وأخذ يشرح للحاضرين كيف أن اليهود كانوا يشترون الأسرى المسيحيين من الفرس الذين غزوا القدس على أيام (هرقل) ملك الروم ، وكيف أنه في أيام السلطان سليم الثالث اختطف

---

اليهود طفلاً يونانياً وذلك لاستزاف دمه، وثبتت ضدهم التهمة باعترافهم، وشنق ستون منهم . . وعلق كل عشرة في شارع من شوارع المدينة . . وحدث مثل ذلك في إنجلترا. وفي فرنسا ارتكبوا جريمة مماثلة، وقد حضر ملك فرنسا آنذاك (فيليب أوغسطس) وأشرف على التحقيق، وبعد ثبوت التهمة أصدر حكمه بحرق المتهمين، وأصدر مرسوماً بطرد جميع اليهود من فرنسا . . وأيضاً حدث شيء من هذا القبيل في ألمانيا . . فالقصة أيها الأصدقاء قديمة ومكررة وهي من صميم شعائرهم التي ابتدعها حاخاماتهم وأجبارهم وأثبتوها في التلمود، ولا تنسوا أن عيد اليهود قد اقترب، وفي هذا العيد يفكرون دائماً في الفطير المقدس المعجون بدم المسيحيين . .

وصرخ البعض احتجاجاً واستهواً للبشاعة، وسأل واحد من المسلمين:

- (أيها الأب . . ألا يفعلون ذلك بالمسلمين أيضاً؟).

هزّ الأب رأسه قائلاً:

- (بعض شراح التلمود يزعمون أنه يجوز سفك دم

---

المسلمين، وحجتهم في ذلك أن كثيراً من المسيحيين دخلوا الإسلام...).

وابتلع الراهب ريقه وقال في انفعال:

- (إن شعائرهم تفضل الذكر على الأنثى في مسألة الدم، ويفضلون الطفل عمن عداه، ويعتقدون أن في الدم المسيح خلاصاً لنفوسهم...).

وقال رجل سورى تلقى تعليمه الدينى برواق (الشوام) بالأزهر الشريف:

- (عندى بذلك علم... فاليهود يفعلون ذلك كثيراً... لكن يجب ألا نتعجل في نشر الاتهام...).

فهاج عدد من الحاضرين وصرخ أحدهم:

- (يا مولانا، لقد أجمع الشهود على رؤية البادري وخادمه لأخر مرة في حارة اليهود...).

- (لا تصدروا حكماً إلا بعد التحرى والدقة... هكذا يكون العدل).

وصاح شاب مسلم :

- (لا عدل مع من لا يعرفون العدل ..).

ونحرك الجمع الصاحب نحو المدينة ، وساد الذعر جنبات حارة اليهود ، وأقسموا الأيمان المغلظة بأنهم لا يعرفون شيئاً عن البادري أو خادمه ، وإنما الرجل المفقود صديقهم الحميم ، وهم يحبونه أعمق الحب ، بل تطوع أحدهم برصد مكافأة مقدارها خمسون ألف قرش لمن يظهر البادري أو يدل عليه حياً أو ميتاً .. ولجأ اليهود إلى المسؤولين يطلبون الحماية ، وينفون التهمة بشدة ، يؤكدون أن هناك بعض المفرضين الذين يريدون إثارة الفتنة بين الناس ، ويهدفون إلى إشاعة الاضطراب والفوضى فى أرجاء المدينة ، لكن قنصل فرنسا كان له رأى آخر ، فقد كتب مذكرة ضافية عن ظروف اختفاء البادري وخادمه ، واتهم اليهود صراحة بأنهم هم المسؤولون عن اختفاء الرجل ، ورفع هذه المذكرة الضافية إلى (شريف باشا) والى دمشق الذى أمر على الفور بأن ينهب (التفتيشجى) باشا إلى حارة اليهود ليبحث عن المفقودين ، وأعطاه الصلاحيات الكاملة لدخول أى مكان ..



انسكبت الدموع من عيني اليهودي الصالح (داود) :

- (لا أستطيع أن أصدق أن يكون البادري قد أصابه سوء .. إنه آية من آيات للمحبة والنبيل والوفاء ، ولا تجرؤ يد أن تمتد إليه بأذى .. ) .

ولم يسفر البحث والتقصي عن العثور على شيء ، وأخذ الناس يضربون كفاً بكف ، بينما لجأ اليهود إلى بيوتهم خوفاً وهلعاً ، حتى تنجلي الغمة ويسود الأمن والهدوء ، وخاصة أن بعض التحمسين من شباب المسيحية والإسلام قد هددوا بالانتقام .

تنهد داود هرارى في ارتياح حينما وصل إلى يته وأمر خادمه مراد الفتال بأن يحكم إغلاق الباب ، وأن يظل يقظاً لأية حركة ، مخافة أن يدهمهم أحد المعادين على حين غرة ، وطلب منه أن يقف خلف الباب لا يفادره لأى سبب من الأسباب ، وأقبلت كاميليا يفروح من أردانها العطر ، وتواكبها الفتنة الطاغية ، وقميص النوم الوردى يكشف عن مفاتن جسدها المثير ، وجلست أمام داود على السرير الموشى بالفضة المغطى بالحرير ، ثم أعطته ظهرها وألقت

برأسها على صدره ، وأخذت تعبت بشاربه ، كان فى غاية  
من الضيق لا مثيل لها ، ولما لم يستجب لمداعبتها وعبثها  
همست بصوت حنون :

- (هل أصب لك كأساً من الخمر .. ؟؟).

- (لا أريد شيئاً ..).

- (إذن قبلى ..).

أراد أن يسكتها ، فطبع قبلة باردة على جبينها .

- (يا لك من رجل غريب الأطوار .. أنا لست طفلة ..

أنظر إلى جيداً ..).

دفعها عنه بهدوء وتمتم :

- (ليس هذا وقته ..).

- (متى نأكل الفطير المقدس ؟ إن ثقتى بمفعوله السحري

لا حد لها ..).

هب واقفاً وصرخ :

- (لا تذكرى هذا الأمر ..).

---

- (ما الذى يربكك ؟؟ قريباً تخفت الضجة .. وينسى  
الناس كل شيء .. عندئذ يعود إليك شبابك ..).

قال فى ضيق :

- (أنت تتكلمين فى جرأة وقحة ..).

- (أنت زوجى ..).

- (الزنى جانب الأدب ..).

- (ألا يحق للزوجين أن يتبادلا عبارات الغزل ..).

تمتم بيت قديم شهير من الشعر العربى :

هممت فى دلال :

- (أنا لا أحب الشعر .. فلنفرق أسنانا فى الكأس  
والعبث ..).

دفعها هذه المرة فى عنف وقال :

- (إليك عنى .. إن جفونى لم يقربها النوم ليلة أمس ..  
وأنت كنت تغطين فى نوم عميق ..).

---

تمتت في غيظ :

- (مسكين ، لينك مثلى تعيش لحظتك الراهنة وتنسى ما عداها . . بذلك نسعد بحياتنا) .

لشدّ ما يكره كاميليا الآن ، ليس لوجودها معنى ، هي في واد وهو في واد آخر ، هي تضج أنوثة وحيوية وتعيش كالسكري ، وهو يتمزق وهناً وقلقاً كمدأ ، إنهما غريبان يفصل بينهما صحارى واسعة من فارق العمر ، والاهتمامات والأمال ، لكنه جاهد غضبه وحاول أن يستر ضيها فقال :

- (يا حبيبتي . . إن الأمر خطير . . إننى أعانى من الهموم ما لا يطيقه بشر . . فلتحترمى أحزاني وآلامى . . وأماننا فسحة من الوقت بعد ذلك . .) .

وقبل أن تحجب عليه بكلمة سمع صوت هارون هراى ينادى :

- (داود . . داود . . الكارثة على الأبواب . .) .

وثب من فوق سريره ، وفتح الباب ووقف شاحب الوجه ، قلق النظرات ، وهمس فى ضعف :

- (ماذا جرى؟؟).

قال هارون:

- (لقد قبضوا على سليمان الحلاق وساقوه إلى التحقيق...).

صرخ داود في ذعر:

- (مستحيل كيف ترب الأمر...؟؟).

- (إلى أين...؟؟).

- (يجب أن نواجه الكارثة لنقضى عليها قبل أن تطبق علينا بجناحيها السوداءين...).

- (ماذا ستفعل...؟؟).

- (سأنتصل بسليمان وأمنه الأمانى وأؤكد عليه بالألا يعترف بشيء مهما كان الأمر...).

تنهدت كاميليا في ارتياح بعد أن خرج زوجها،  
وابتسمت وسرت قشعريرة في بدنها وهي تفكر في الخادم  
مراد الفتال.

---



قال حاذق بك المشرف على التحقيق فى قضية اختفاء  
البادرى توما وخادمه :

- (إن أماننا خيط رفيع قد يوصلنا على الجناة ، ونرجو  
ألا ينقطع . . إنه مجرد بصيص من النور قد يلقي ضوءاً على  
الفاعل . . لقد لا حظنا أن إعلانات المزاد التى كان يلصقها  
البادرى بنفسه يوم الأربعاء الماضى موجودة فى كثير من  
الاماكن وخاصة الكنائس منذ يوم الأربعاء ، لكن يوجد  
إعلان لم يلصق إلا بعد يومين على باب سليمان الحلاق  
اليهودى ، الذى يقع محله بجوار الكنيس اليهودى ، فلماذا  
تأخر وضع هذا الإعلان بالذات ؟؟ لا تسخروا منى ، فإن  
أول الغيث قطرة ثم ينهمر ، اقبضوا على سليمان الحلاق  
وأحضروه إلى على الفور دون أن يشعر بذلك أحد . . )

حينما دهموا سليمان في محله، كان يحلق للزبائن في هدوء غريب، لم يكثرث لما يراه، وعندما قال له (التفتيشجى): (تعال معنا) أظهر استغراباً ودهشة، ليس الأمر إذن مجرد تدقيق عابر، لماذا اختاروه هو بالذات؟ هل فعلها أحد الخونة ووشى به؟ مستحيل... إن انكشاف الأمر يعنى الخراب والدمار بالنسبة للجميع، سوف يساق الحاخامات وأسرة هرارى إلى الجحيم... لا... قد يكون هناك مجرد شك، والحلاق معروف بأن محله مأوى للكثيرين (ربما استدعوني ليعرفوا الشائعات التى تتناثر هنا وهناك، أو لعلهم ظنوا أن حلاقاً مسكيناً مثلى، يستطيعون الضغط عليه، والحصول منه على معلومات، وهذا أمر بسيط، أستطيع أن ألعب بهم أو أدعى البلاءة مادام المحققون لا يملكون أدنى دليل ضدى...).

ومع ذلك الاطمئنان الظاهرى الذى حاول به سليمان أن يهدئ من روعه إلا أنه كان يسير فى الطريق كالمنوم أو للخنتر، عيناه زائغتان وقدماه تتعثران فى الطريق الطويل، وقلبه يضرب فى عنف، حتى يكاد الرائي أن يشهد

---

الضربات تحت ثيابه، وأنفاسه لاهثة، وشعوره بالاختناق يطبق على صدره وحنجرته، حاول أن يتحدث بأى كلام، فاحتبست الكلمات فى حلقه، وأخذ ينسم فى بلاهة تشير الشك والريبة..

وحضر الوالى شريف باشا بنفسه، وأحضر واليه سليمان الذى أنكر علمه بأى شىء..

- (ما هى معلوماتك يا سليمان عن الإعلان؟).
- (الأب توما وضع إعلاناً على دكانى وانصرف).
- (بأى برشانات ألصقها البادرى..؟).
- (بيرشان أحمر وآخر ليلكى (بنفسجى غامق)).
- (كيف عرفت هذه الألوان مع أنها تحت الورقة؟ ولماذا وُضع الإعلان فى مكان مرتفع؟ وكيف وصل الأب توما لهذا المكان المرتفع؟).

قال سليمان وقد داهمه ارتباك ظاهر:

- (كنت أرى المارة يعبثون بالإعلان ويلمسونه، فخفت



عليه من التلف والضياع ، فأخذته من محله الأصلي  
والصقته في مكانه الحالي . . . ) .

- (ألا تعلم أن باقى الإعلانات كانت ملصقة بطريقة  
مغايرة للطريقة التى لصق بها الإعلان على باب  
محلك . . ؟) .

- (كيف ؟ . . ) .

قال شريف باشا :

- (الإعلانات الموجودة على الكنائس الفرنساوية  
وجدت ملصقة بأربعة قربانات من القربان المستعمل عند  
الرهبان ، والرهبان عادة لا يستعملون البرشان العادى . . ) .

قال سليمان وقد حاصرته التهمة :

- (لا أدرى . . ) .

صرخ شريف باشا فى غيظ :

- (أنت تعرف الحقيقة . . ) .

- (الحقيقة لا يعلمها إلا الله . . ) .

- (لقد أمرنا الله بالعدل . . .)
- (اعرف يا مولانا . . .)
- (وقد أهدر دم رجل بريء صالح دون جريمة ارتكبتها . . .)
- (هذا حرام . . .)
- (ولا بد أن يظهر الحق . . .)
- (أتمنى ذلك . . .)
- ودق شريف باشا بقبضته على منضدة صغيرة :
- (نحن مسئولون عن حماية أرواح الناس ومحاصرة الجريمة . . .)
- (لقد قلت ما أعرف . . . وليس لدى جديد أخيفه . . .)
- سدد إليه شريف باشا نظرات ملتهبة وقال :
- (سنعرف كيف نتطقق بالحقيقة . . . خذوه . . .)
- وسيق سليمان إلى الحبس الانفرادي ، لكن داود هراري استطاع أن يلتقى به أثناء ترحيله إلى السجن :

- (احذر يا سليمان . . لقد قررنا أن نعطيك مبلغاً كبيراً من المال، تعيش به سعيداً طول حياتك . . ولا تنس أن أوامر ديننا يجب أن تحترم . . لا اعتراف حتى لا يعاقب إسرائيل، أنت تعرف ذلك . .).

حينما جلس سليمان الحلاق وحيداً في زنزانه المظلمة حط على قلبه حزن ثقيل، الوحدة والانتظار والخوف تحالفت كلها لسحق مشاعره، وطمس معالم المستقبل أمامه، شعر بضيق بالغ، تذكر بيته وزوجه وأبناءه وأباه، تذكر اللحظات الهنيئة التي يقضيها في محله يحلق الشعر أو يفصد الدم وتساءل بينه وبين نفسه: لماذا لا تكفى الديانة بالدم المفصود بدل القضاء على الضحية . . ؟

الأخطر من ذلك كله أن نوازع من الشك أخذت تراود خياله، بدأ يشك في صحة كلام الحاخامات وصحة شروح التلمود، ها هي عقيدته تنزعزع . . لا . . يجب أن يتماسك ويكون مثالاً لليهودى الثابت على مبدئه، يجب أن يصمد للفتنة ويواجه العاصفة بقلب مؤمن، إذا كانت دياناته على حق فإن الله سيحميه وينصره، ومع ذلك فإن الشك

---

يرأوده، ويذا الكفاح من أجل مبادئ التلمود أمراً هزياً، بل حماقة كبرى، إن العبء ثقيل والتضحية باهظة التكاليف، وسليمان يريد أن يعيش، لماذا دس أنفه في مشكلة كهذه؟؟ آه.. نظرات القس الذبيح تطالعه الآن في ظلام الزنزانة.. في العيون ضراعات قاتلة، يا إلهي!! والرجل شاحب الوجه يستنجد بالمرودة ولا أحد يجيبه، يا إلهي.. كان استسلام القيس رهيباً.. ما أقسى استسلام الضعفاء حينما يساقون إلى الموت ظلماً.. وأخذ سليمان يتلفت في الزنزانة يمنة ويسرة.. يحاول أن يهرول من الأشباح التي تملأ عليه أفقه الأسود.. (أيها الأب توما.. أنا لم أرد أن أسىء إليك.. لا تنظر إليّ هكذا.. أنا عبد أنفذ ما يأمرني به كبار الرجال.. قرأوا لي في التلمود.. حشوا رأسي بالكلمات المقدسة، وأنا إنسان جاهل.. فقير مسكين..).

انتبه سليمان إلى نفسه، إنه يهذى، أحياناً يتكلم بينه وبين نفسه، وأحياناً أخرى يرتفع صوته على الرغم منه، تحسس الجدران الباردة، ووضع يده على الأرض، ثم أخذ يندق الأرض وينطق رأسه في هستيرية ويصرخ:

- (أنقذوني .. أكاد أموت .. الرحمة).

قدم السجنان، نظر إليه بعينين يتقد منهما الشرر ..  
وللسجان سحنة متميزة لم يعرفها سليمان من قبل، ركله  
السجان فى غلظة ثم هدر:

- (لا أريد أن أسمع صوتك .. أتفهم ..؟؟).

انكمش سليمان كفار مذعور .. رفع عينيه فى ضراعة  
ثم هتب:

- (أليس لك أولاد؟).

- (أتريد أن تذبحهم؟؟).

- (أنا مسكين، أنا لم أرتكب جريمة ..).

انحنى السجنان صوبه، أمسك بكتفيه ثم جره خارج  
الزنزانة:

- (خير لك أن تعترف .. أنا أعرف جيداً كيف أقنعك  
بقول الحقيقة .. وشريف باشا وعد بالعفو عنك إذا  
اعترفت .. سيكتب لك (فرماناً) بذلك .. إنها صفقة

رابحة . . ولا بد يوماً ما أن تعترف ، ولكن الاعتراف اليوم  
له قيمة . . وغداً لا قيمة له . . أنت ذكي وتفهمنى).

أخنى سليمان رأسه وقال :

- (لا أستطيع الصبر . . لا أستطيع . .).





الخدیعة الكبرى التى وقع فيها سليمان هو أنه كان یظن أن النجاح كان حلیفه، ولن یستطیع أحد أن یمیط اللثام عن الجريمة، وكيف لا یطمئن باله وهو یرى أنها دبرت بلیل، وأشرف علیها جمهرة من كبار رجال الدین والمال، وأن آثارها قد عفی علیها تماماً؟ فهو لم یشارك فى الجريمة شجاعة منه أو استهتاراً بما یبعتها من نتائج، وإنما شارك ثقة منه فى عدم القدرة على اكتشافها، أما وأن أصابع الاتهام تشير إلیه والشبهات تحاصره من كل جانب، والدائرة تضیق من حوله، فلا بد أن یفكر تفكيراً عاقلاً رزیناً، فاللززانة شديدة السواد مخیفة، والوحدة قاتلة، وهو یخاف عیون السجان ونظراته القاسية، وثقته فى كلمات الحاخامات أصبحت ضعیفة، واحتماؤه برجال المال ذوی السلطة والنفوذ لم تعد ذات جدوى، فلماذا لا یفكر بمنطق التاجر؟

لماذا لا يفكر في مصلحته الذاتية دون اعتبار للواجبات الدينية أو علاقات الصداقة؟

قال سليمان حينما أحضره أمام المحقق :

- (لقد رأيت الأب توما عند العصر يسير مع داود هرارى وأخويه هارون وإسحاق ، ويرافقهم يوسف لينبادو والحاخام موسى أبو العافية والحاخام سلانكيلى . . وكانوا جميعاً داخلين فى شارع الشلاج المتفرع من حارة اليهود حيث يوجد منزل داود ، ويستطيع الباشا أن يستحضرهم لكى اعترف أمامهم بذلك ، وأواجههم بالحقيقة ، وقد مر هنا منذ فترة وجيزة (إسحاق بتشوتو) صديق آل هرارى ، وهو تحت الحماية النمساوية ، وسألنى هل اعترفت بشئ؟ لما أجبته سلباً قال لى : (سأتوسط فى خلاصك) وتركنى ومضى . . ولو كنت أعلم أن مواعيده مواعيد عرقوب لكننت اعترفت فوراً . .).

كان هذا الاعتراف ، على الرغم من أنه لم يكن كاملاً ، ذا أهمية بالغة ، إن الحقيقة ستكشف رويداً رويداً ، وصدر أمر الباشا باستدعاء الأشخاص الذين ذكرهم سليمان

---



الحلاق، وكانوا فى رفقة البادري المفقود . . أبدى داود دهشته حينما رأى رجال الدولة، وعلى رأسهم (التفتيشى باشا) يطرقون بابه، وتمتم فى شحوب وهو يسرع بارتداء ملابسه :

- (يا للكارثة؟ يبدو أن سليمان قد انهار) .

ونظرت إليه زوجه كاميليا فى رعب وهتفت :

- (ما معنى ذلك؟) .

- (اتهام . .) .

- (شبهة أم اتهام؟) .

- (من بدري؟ قد تكون تحرياتهم قد أثبت أن البادري كان

يسير معنا، وفى مثل هذه الحالة يكون الإفلات سهلاً . .

فنحن جميعاً متفقون على الإنكار . .) .

قالت كاميليا والدموع تبلل أهدابها :

- (ومتى ستعود . .؟؟) .

تنهد فى حسرة وهمس :

- (ليتني أعلم ..).

تشبثت بأذيال ثوبه ، وأخذت تقبل وجهه وعنقه ويديه  
ثم صرخت :

- (لن أتركك .. لسوف أتى معك ..).

استنكر كلماتها وهتف :

- (مستحيل .. ماذا يقول الناس؟؟).

- (كيف أحى بدونك ..؟؟).

- (نحن لم نرتكب خطيئة ، لقد نفذنا أوامر الديانة .. ولن  
يتخلى عنا الله ..).

كان يعزى نفسه في الحقيقة ، بل يحاول جاهداً أن يقهر  
عوامل الضعف والخوف والندم التي أخذت تشيع في جنبات  
قلبه وعقله ، تماماً كما حدث لليمان وهو في زنزانه المظلمة ،  
إنها لحظات تصيب الكثيرين من رجال العقائد عندما يتعرضون  
لهزات عنيفة ، أو زلزلة قوية ، فتجعلهم يعيدون النظر فيما  
يؤمنون به ، وهم في هذه الأوقات يحاولون التشبث بمبادئهم

---

على علاقتها، الحطاطي منها والصحيح؛ لأنهم يشعرون في داخلهم أن نذر التردد والشك تلاحمهم فجأة..

وتتم داود:

- (يجب أن يختفى مراد، وليته يستطيع الهرب.. إني لا أثق في الخدم، وهم سريعو الانهيار.. مثله مثل سليمان حسبما أعتقد.. يجب أن تهتمى بذلك يا كاميليا..).

قالت في ثقة:

- (اطمن.. سأخفيه ولن يعثر عليه أحد إلا بأمرك).

وما أن انصرف داود مع (التفتيشجي) حتى أسرعت كاميليا باستدعاء مراد القتال، كانت تجفف دموعها، وتشعر، رغم كل شيء، بمرارة شديدة من أجل زوجها المسكين، إنها تكره في زوجها أشياء كثيرة، لكنها في هذا الوقت بالذات شعرت أنه زوجها وأبو أولادها، وعماد بيتها، هناك نوع من الرابطة لا يموت مهما اختلفت الأمزجة، وتضاربت المشاعر بين الزوج وزوجه، لقد رأت زوجها يمضي ذليلاً خائفاً وسط رجال (التفتيشجي)،

فتمزق قلبها ألماً وحسرة، كاميليا لا تفهم تفسيراً لما يعمل في نفسها، ومن ثم فهي تترك مشاعرها تنطلق حسب هواها .

قال داود هرارى عندما وقف أمام الباشا :

- (لم أنظر الأب توما منذ شهرين أو ثلاثة ، وليس من عادتي الاختلاط بهؤلاء الخواجات . . منزلي فعلاً في شارع الثلاثين ولكني لا أعرف شيئاً عن ذلك اللقاء المزعوم . . ) .

أما يوسف لينبادو فقد تلثم قليلاً ثم قال :

- (كنت في منزلي ولم أخرج إلا يوم الخميس قرب الظهر ، لأن ابنتي توفيت منذ خمسة عشر يوماً ، وعادتنا ألا نخرج من منزلنا مدة سبعة أيام ، عند وفاة أحد أقاربنا ، وبناء على ذلك فأنا لا أعلم شيئاً عما أسأل عنه الآن) .

أما إسحاق هرارى ، شقيق داود ، فقد قال في ثقة وتأکید :

- (لا معلومات لدى . . أنا تاجر مشغول بتجارتي . . هي كل شيء في حياتي) .

---

أما العجوز يوسف هرارى فقد سعل ، ثم قال فى وهن :  
- (منزل فى شارع الثلاث ، وأنا لا أخرج إلا نادراً بسبب  
تقدمى فى السن ، لم أقابل الأب توما منذ ثلاثة شهور . .  
آه . . لقد ربيت بين المسيحيين . . ينامون عندى وأنا  
عندهم . . أكل من طعامهم ويأكلون من طعامى . . نحن  
إخوة أحباء برغم اختلاف الديانة . . )

ورفع الحاخام موسى أبو العافية رأسه فى اعتزاز ظاهر  
وتتم :

- (لم أقابل أحداً ممن ذكرهم الحلاق منذ ستة شهور ، ومن  
للمحتمل أن نكون قد تقابلنا مرة بمحض الصدفة ثم افترقنا ، غير  
أنى لا أذكر ذلك مطلقاً . . والإنسان مطبوع على النسيان . .  
وبخصوص الأب توما فأنا لم أره منذ شهرين تقريباً) .

وتقدم هارون هرارى قائلاً :

(منزلى مجاور لقنصلية إنجلترا ، ولا أذهب إلى إخوانى  
فى حارة اليهود إلا نادراً ، لم أتقابل مع الحلاق منذ ثمانية  
أيام . . أنا من الأشخاص ذوى السلوك الحميد . . لم أجتمع

مع هذه الجمعية، هذه التهمة ملفقة ضدنا . ربما قال الحلاق سليمان ما قاله مخافة الضرب).

أما الحاخام الثانى موسى سلاتيكلى فقد أنكر كل شيء بالكلية . .

وواجهوا المتهمين بسليمان الحلاق الذى أصرّ على أقواله، بينما أخذ المتهمون يتقدمون إليه واحداً واحداً ويقولون :

(لماذا تفتري علينا يا سليمان يا حبيبي، أطلب من الله أن ينقذك مما أنت فيه . . لا يمكنك أن تصمم على هذا الكلام المخترع . . (11).

لم يزل الطريق إلى كشف غوامض الجريمة محفوقاً بالصعاب، أيمكن أن يكون سليمان كاذباً فيما ادعاه؟ وهل بينه وبين الذين اعترف عليهم عداوة شخصية، أو يريد ابتزاز الأموال منهم . . ؟؟ إن كل الشواهد تؤكد أن علاقة سليمان بالمتهمين لا غبار عليها، وأن الصلة بينه وبينهم وطيدة منذ زمن بعيد، وهم يثقون به ويثق بهم، وجميعهم

---

من زبائنه سواء فى مجال الخلاقة أو الحجامة . . وتمتم حاذق  
بك المشرف على التحقيق :

- (سليمان يخفى الحقيقة . . ومعنى ذلك أنه ضالع فى  
الجريمة . .).

ثم أمر بحبس جميع المتهمين فى الزنانات الانفرادية  
بحيث يتعذر أن يتصل أحدهم بالآخر، ثم أتى سليمان  
وأصدر أمره باستعمال الكرياج . . فصاح سليمان فى خوف :  
- (لا . . سأقول كل شيء).

وأحاطت به العيون وتلهفت الأسماع، لقد مضى على  
التحقيق حوالى تسعة أيام من دون فائدة تذكر، ودمشق كلها  
ساهرة حائرة، الناس يتساءلون، وعلامات الاستفهام  
ترسم على الوجوه، فى الشوارع وفى البيوت والمحلات  
التجارية . . فى المزارع . . فى القنصليات، وقنصل فرنسا  
يرسل تقارير يومية إلى باريس . . ولا بد أن يجيب التحقيق  
على علامات الاستفهام التى تنطلق فى كل مكان . . وإلا  
حدثت كارثة مدوية . .



لم يستطع المحققون أن يقبضوا على اليهودى المعروف (بتشوتو)، وهو رجل داهية غريب الأطوار يعمل موظفًا كبيراً فى القنصلية النمساوية، وهو أحد رعاياها، وقد كان يُظن أنه وثيق الصلة بجريمتى قتل الباردى وخادمه .

حتى بعد أن اعترف سليمان بأن (بتشوتو) حذره من الاعتراف ووعدته بالخلاص، نفى (بتشوتو) التهمة بشدة، واحتج على ذلك، بل كان يرد على أسئلة المحققين فى تبجح وصفاقة . . هذا الذئب الداهية عندما فكر فى الأمر أدرك أن سليمان على وشك أن يلقى أمام المحققين الحقيقة كاملة، ففكر هو وجماعة من اليهود أن يقوموا باغتيال سليمان الحلاق، حتى ينقطع خيط التحقيق إلى الأبد، وفكروا أيضاً فى قتل الخادم مراد . وبالنسبة لسليمان، لم



تنجح أية خطة فى التخلص منه ، فالحراسة مشددة والسجن لا يُسمح لأحد بدخوله ، ومن ثم لم يكن هناك من وسيلة سوى دس السم فى طعام المسجونين وهذه الطريقة لا تودى بحياة سليمان وحده ، بل بحياة العشرات . . ومع ذلك فإن هذه الوسيلة قد فشلت هى الأخرى مما جعل (بتشوتو) يعانى من همّ قاتل ، لا من أجل نفسه فحسب ، بل من أجل اليهود المتهمين الذين احتجزوا فى الحبس ، وأشار إلى (مدام كاميليا) كى تحاول التخلص من خادمها مراد الفتال ، فأبدت اعتراضاً وجيهاً :

- (إن الأمور لا تعالج هكذا يا بتشوتو . . سنجر أنفسنا إلى مزيد من المشاكل وسيعرف الجميع معنى ذلك . . إننا بقتلنا سليمان أو مراد سنفتح ملفاً لقضية جديدة ، ولن يعدم المحققون وسيلة للسيطرة على أحد الضعفاء فيقرّ بالحقيقة . . ) .

هز بتشوتو كتفيه فى أسف ثم قال :

(اليوم قد يعترف سليمان ، وقد تفلت فرصة النجاة إلى الأبد ، تذكرى أن زوجك يعانى من آلام السجن ومعرض لحكم الإعدام . . ويوسف هرارى قد زادت حالته سوءاً . . ) .

هبت واقفة وقالت فى حزم :

- (لا أستطيع أن أقرك على رأيك . . .).

- (كيف؟).

- (فى إمكانك أنت أن تفعل ما تشاء، إنك تبحث دائماً  
عن أدوات لتنفيذ لك رغباتك . . .).

انصرف بنشوتو مكفهر الوجه، وأبت كاميليا إلى  
حجرتها، وأسرعت إلى زجاجة الخمر، وأخذت تعب  
منها، ويدها ترتجفان، ثم دارت رأسها، تركت غرفتها،  
مضت عبر الردهات والممشى الطويل، فى آخر الدهليز  
توجد الحجرة القذرة . . الحجرة المعتمة التى تثير مشاعرها،  
وتذيب كيائها، وتفرقها فى بحر من النشوة القاتلة . . هناك  
تخبى مراد اللعين، أحكمت إغلاق الباب من الداخل،  
قدمت له طعاماً وشراباً، وجلسا يأكلان، أشرقت عيناها  
بالفرحة الجنونية . . .

- (لقد أصبحت لى وحدى . . .).

- (أنا عبدك يا سيدتى . . .).

- (فى نظرى أنت من كبار السادة ..).
  - (هذا كثير جداً ..).
  - (أيها الأبله .. لا فرق بين غنى وفقير ..).
  - (ولكنى خادم ..).
  - وانفجر باكياً، فهتفت:
  - (ماذا جرى يا مراد؟).
  - (أبكى من أجل سيدى .. ومن أجل نفسى ..).
  - (لا تخف ..).
  - (الناس يقولون لو لم يأمر الباشا بإعدامنا لأحرقونا أحياء ..).
  - لفت ذراعها حول عنقه وأخذت تلامس شفتاها وجهه وعنقه، لكنه كان بارداً كالثلج، دفعته فى غيظ وصرخت:
  - (ماذا بك؟؟ لن تستطيع الجن أن تعرف طريقك ..).
  - (لا أستطيع التخلص من رعى .. إنه يقهرنى ..).
-

- (القضية تافهة .. واليهود سيدفعون مئات الألوف ليضيعوا معالمها، تذكر ذلك جيداً، المال هو خاتم سليمان ..).

ثم أخذت ترقص وتهز أردافها وتعبي الكؤوس ..  
وتغنى بصوت ناعم غير متسق:

- (لييك شيك .. أنا بين يديك ..).

وظلت تعابشه .. تشد شعر رأسه ثم تنزع شعرة من شاربته، وتجلسه وتدفعه إلى أمام وإلى خلف .. جفت دموعه وسرى الدفء في جسده، وابتمسم. كانت عيناه حمراوين، يتأرجح دون وعى، يضحك ويبكى، وانطرحا على فراش الإثم، لكنها إزاء اللحظات الحاسمة تسمع صرير الباب .. أهى فى حلم؟ إنها مجرد أوهام لاشك فى ذلك .. وفوجئت بالخدامة (أستير) تقف أمامها ترديهما بنظرات شرسة .. لم يكن لدى كاميليا كلمة لتدافع بها من نفسها وقد وجدت مع خادمها متلبسة بالجريمة ..

- (كيف دخلت إلى هنا؟؟).

---

- (مفتاح سيدى كان بجيب الصدر ..).

- (اخرجى يا كلبة ..).

ونهمزت وهى غارقة فى خجلها وعارها وصفعت الخادمة على وجهها، لم تتحرك (أستير) وإنما ظلت تلهبها بنظراتها القاسية .. بينما طأطأ مراد رأسه فى أسى ..

- (لهذا تعترضين على زواجى منه ..).

- (منذ متى تجرؤين على مخاطبتى بهذه اللهجة .. ؟؟).

لم تكثرث (أستير) وأردفت تقول:

- (شككت فى الأمر من قديم .. لكنى أردت أن أتأكد بنفسى).

- (من تكونين؟؟ حشرة .. اقتلها يا مراد ..).

ضحكت أستير:

- (دمى لا يصلح للفطير المقدس ..).

أدركت كاميليا معنى كلماتها، إنها تهدد، ولا بد من مهادتها، لو استطاعت أن تعتذر للخادمة وتسترضيها، فإن

---

ذلك معناه أن تكتم سر جريمة البادري توما، وفي نفس الوقت تغطى على خطيئتها، وبعد ذلك تستطيع أن تتدبر أمرها بهدوء ..

- (أسير .. أنا أسفة .. كلنا خطايا .. لحظة ضعف يا حبيبتي .. لقد شربت كثيراً ولم أتمالك إرادتي .. السكارى يفعلون أى شيء .. أما سمعت عن ذلك اليهودى الصالح الذى حاول أن يعتدى على عفاف ابته أثناء سكره؟؟ .. استحلفك بالله أن تصفحى عني ..).

ولم تكف (كاميليا) بذلك بل زحفت على ركبتيها العاريتين، واقتربت من الخادمة واختطفت يدها وقبلتها وأخذت تتمسح فى أذيال ثوبها، وتقول :

- (مراد لك .. لقد وعد زوجى بذلك، وسيدفع لكما المال الوفير حتى تسعدا، وإذا لم يفعل داود ذلك فأنا سأفعله بنفسى، هذا وعد .. ولتغفرى لى ..).

قالت أسير فى ارتباك والدموع تفرق عينيها:

- (عفواً سيدتى .. لقد انتهى الأمر وسأنساه كلية .. وأرجو ألا يترك فى نفسك أى أثر ..).

---

وهبّ مراد واقفاً وقال :

- (لن أبقى هنا بعد الآن لحظة ..) .

استدارت إليه سيدته قائلة :

- (أنت تغامر بمستقبلك ومستقبل سيك ..) .

- (سأخرج ..) .

وقفت كاميليا عاجزة لا تستطيع أن تحسم أمراً، وخطا مراد صوب الدهليز المعتم متجهاً صوب الباب الصغير المفتوح .. وهمست أستير :

- (إلى أين ؟؟) .

- (إلى الجحيم .. أكاد أختنق .. ليكن ما يكون ..) .

وتبعته أستير دون أن تنفوه بكلمة، بينما نظرت كاميليا من حولها، كانت وحيدة إلا من المخطوطات القديمة وبعض نسخ التلمود والكتب المقدسة، وصور متخيلة لبعض الحاخامات الأقدمين، وأشياء مهمة، وبعض الصراصير تجري هنا وهناك .. نظرت إلى ما حولها

بحسرة، وشعرت أن الحياة تافهة وأن الأيام تعسة لا معنى لها . . وأن ما يجري من أحداث غريبة يكاد يورثها الجنون، فألقت بوجهها على الأرض وأخذت تتحبب بصوت عال . .







قال سليمان :

- (أجل يا جناب الباشا . إن المتهمين السبعة الذين تحدثت عنهم أدخلوا (الأب توما) فى منزل داود هرارى . . ثم دعونى بعد الغروب بربع ساعة وقالوا لى : قم فاذبح هذا (القسيس) . كان الأب توما مربوط الذراعين . . فاعتذرت . . أنا لا أقدر على ذبحه . . ووعدونى بالدراهم ، اعتذرت . . ثم سلمونى الإعلان الصغير الخاص بالمزاد . . الذى أعطانى الإعلان هو هارون هرارى . . أتذكر الآن . . لقد قلت لكم إن داود هرارى هو الآخر قابلى بعد ضبطى ، عندما كنت منقاداً إلى سراى الحكومة . . واستفسر منى عما إذا كنت قد اعترفت بشيء أم لا ، ولما أجبته بما يطمشه . . أوصانى بالشبات . . ووعدنى بمكافأة كبرى . . ثم إن الذى

استدعاني من حانوتي للذهاب إلى بيت هراري هو خادم  
داود واسمه مراد الفتال . . .).

نظر الباشا الوالى إلى أحد الرجال وقال :

- (استحضروا الخادم مراد الفتال . . .).

واستمر التحقيق مع سليمان الحلاق . . .

- (أتقول الحق يا سليمان أم أنك تخاف الضرب وتتهم  
الأبرياء بالزور؟؟).

- (الحق ما قلت . . . ومستعد لمواجهةهم . . . ومصمم على  
كل كلمة . . .).

- (أكان يوجد بالمنزل نساء أثناء الجريمة؟).

- (لم أرَ غير الرجال السبعة . . . والخادم كان فى  
الخارج . . .).

- (من فتح لك الباب؟؟).

- (داود هرارى . . .).

- (هل بقيت معهم بعد أن رفضت الذبح؟؟ . . .).

- (ذهبت إلى حانوتي . . ثم إلى منزلي . .).
  - (أكان يمكن سماع القيس إذا صرخ وهو في الغرفة التي كان فيها؟؟).
  - (المزمل محاط بمنازل اليهود من كل جهة ، والمتهمون كانوا يمنعونه من الصراخ . .).
  - (هل كان خادم البادري معه؟؟).
  - (الخادم قتل في محل آخر . . والذين قتلوه كانوا متفقين على هذا الأمر مع من قتلوا الأب توما . .).
- سيق مراد الفتال إلى التحقيق ، كان مرتبكاً زائع النظرات ، لقد وجدوه لدى بيت داود هراري ، وأقرب بأن سيده داود قد أرسله فعلاً لاستدعاء سليمان الحلاق ، وأنكر معرفته بأي شيء آخر ، وزعم أنه عاد إلى بيته بعد استدعاء سليمان ، وقرر أنه لم ير أحداً من الرجال في بيت سيده . ثم ووجه داود بكلام خادمه فأنكر وادعى أنه ذهب إلى الجمرع في الوقت الذي يدعى فيه سليمان ومراد أنه اتصل بهما ، غير أن شهادة ناظر الجمرع لم تأت في صالحه ، وبعد يومين أعيد استجواب الحلاق :
-

- (من أعطاك الإعلان الذي وجد على بابك . . ٢٢).

- (هارون هرارى . .).

- (متى كان ذلك ٢٢).

- (يوم الأربعاء ٤ ذى الحجة بعد المغرب بنصف ساعة . . وهارون أعطاني برشانا للصق الإعلان وقد تم لصقه يوم الخميس عند الفجر . . دون أن يراني أحد . . أنا أعلم أن البادري كان قد وضع إعلاناً يوم الأربعاء، وقرأه بعض الناس ثم اختفى ذلك الإعلان . . يبدو أن آل هرارى هم الذين رفعوه بدليل أنهم أعطوني غيره كى ألصقه . .).

صمم باقى المتهمين على الإنكار ولم يعترفوا بشيء، كان قد مر على اختفاء البادري حوالى ثلاثة أسابيع دون الوصول إلى صورة واضحة حقيقية للجريمة، ورأى الوالى شريف باشا أن سليمان الحلاق لم يزل لديه الكثير ليخبر به، وخاصة أنه ترددت شائعات تقول إن اليهود سيحاولون قتله، كما وأن اليهود أخذوا يحاولون خفية الاتصال ببعض الشخصيات البارزة سواء من الأجانب أو الوطنيين كى

يسدل الستار على التحقيق . . وقال شريف باشا بعد أن  
استدعى سليمان :

- (من تخاف . . ٩٩).

نظر في توسل دون أن يجيب . . فقال الباشا :

- (اعلم يا سليمان إننى أعلك بشرفى أن أعفو عنك ،  
مقابل أن تقول الحقيقة . . حتى تدرأ الفتنة عن الناس ،  
وتكشف الظالمين ، وتنجى الأبرياء ، لن تخسر شيئاً يا  
سليمان بل ستكسب الكثير . .).

وأقسم الباشا على وعده وأعطاه كتاباً بذلك ، فقال  
سليمان الخلاق وهو ييكى :

- (أرسل داود خادمه مراد فى طلبى بعد الغروب . .  
عندما ذهبت إلى بيته رأيت هارون وإسحاق ويوسف  
هرارى ويوسف لينادو والحاخام أبو العافية والحاخام  
سلانيكى وصاحب البيت داود . . كان الأب توما مربوطاً ،  
يا إلهى ! قالوا : قم واذبح هذا القيس . . أحضر داود  
سكيناً . . أنا الذى ألقى القيس على الأرض . . واشتركتنا

جميعاً فى مسكه . . أنا الذى وضعت رقبة القيس على طشت كبير . . وأمسك داود بالسكين وذبحه وأكمل معه أخوه هارون . . لم تقع نقطة واحدة من دم القيس خارج الطشت . . سكنت حركات الضحية . . ثم سحبناه من حجرة الذبح . . إلى حجرة أخرى فيها بعض الأخشاب ثم نزعنا ثياب القتيل . . وأحرقوها . . عندئذ حضر الخادم مراد القتال وبأمر منهم قمت أنا والخادم بتقطيع القيس إرباً إرباً ، كنا نضع قطعه فى الكيس . . ثم نرميها فى المصرف عند أول حارة اليهود، بجوار منزل الحاخام موسى أبو العافية، ثم رجعنا إلى بيت داود . . وانتهت المأمرية . وعدوا الخادم بأن يزوجه من الفتاة التى يحبها بمالههم . . ووعدوني بالدراهم ثم توجهت إلى منزلى . . هذا ما حدث . . وأنا لم أقل ما قلت إلا بناء على ما يرتضيه ضميرى . . )

كان الحاضرون، وهم يستمعون إلى سليمان، فى غاية الدهشة والعجب، وعلامات الاشمئزاز والتفرز تبدو على وجوههم، وبعضهم دمعت عيناه: أيمكن أن يحدث ذلك فعلاً؟

قال الباشا سليمان :

- (ماذا فعلتم بعظامه ؟) .

- (كسرناها بيد الهاون .. ورأسه .. كسرناها بيد  
الهاون أيضاً ..) .

- (وكيف فعلتم بأحشائه ؟) .

قال :

- (قطعناها وأخذناها فى الكيس ..) .

ثم سأل المحقق :

- (من اشترك فى التقطيع .. ؟؟) .

- (كنت أنا والخادم نقطعه ، والرجال السبعة كانوا  
يرشدوننا إلى الطريقة .. كان معنا سكين واحدة أتبادلها أنا  
والخادم .. وهى تشبه سكاكين الجزارين ..) .

- (على أية بلاطة كسرتم العظام بعد تقطيع الأب  
نوما ؟) .

- (على بلاطة موجودة بين المربعين) .

---

- (لما كسرتم رأس توما بالطبع كان المخ يخرج منه فماذا فعلتم به يا سليمان؟؟).

- (نقلنا المخ مع العظام ..).

وهنا حدث شيء ملفت للنظر، فقد صرخ أحد رجال الشرطة الواقفين، ثم أغمى عليه لهول ما سمع، وعندما أفاق كان يشهق باكياً، فأمر شريف باشا بإخراج الشرطي، كيما يستكمل التحقيق، وبدأ واضحاً أن علامات التأثير قد ظهرت على وجوه جميع الحاضرين، بمن فيهم ممثل قنصلية فرنسا والنمسا وإنجلترا.. وقال شريف باشا بصوت راجف:

- (متى تمت الجريمة؟).

- (وقت العشاء ..).

- (كم استغرق تصفية الدم؟؟).

رد سليمان:

- (حوالي ثلث الساعة أو نصفها، وهي المدة التي بقي

فيها القس موضوعاً على الطشت) ..



تنهد الباشا فى ألم وقال :

- (ألم يحدث شئ آخر يا سليمان ٩٩) .

- (كان الرجال السبعة يضحكون ويمرحون ويغنون ، بعضهم كان يرقص طرباً هذه الطقوس ضرورية كما فى الديانة . . وكانوا يفعلون أشياء كثيرة ليزيدوا من ألم البادى توما . . وكان الرجل يئن ويتوجع بصوت حبيس لأنهم كمنموافاه . . وقالوا له : (كن مثالاً كما كان الناصرى عيسى) معلقاً على الصليب . . وليتحصل هذا العذاب لجميع أعدائنا) ، هكذا كانوا يرددون .

ثم أجاب سليمان بعد ذلك على أسئلة فرعية كثيرة ، منها نوع الكيس الذى وضعت فيه قطع الجثة ، ومكان نزع ملابس الضحية ، ومن نزعها ، ولون ملابس القسيس إلخ . . ثم أخذ سليمان إلى الحبس الانفرادى واستدعوا الخادم مراد الفتال وواجهوه بأن سليمان قد اعترف بكل شئ ووعدوه هو الآخر بالعفو ، فأدلى باعترافات كاملة تطابقت تماماً مع اعترافات سليمان الحلاق . .

وتوجه قنصل فرنسا بسؤال إلى الخادم مراد :

- (ما منفعة الدم عند اليهود؟).

- (يستعملونه فى الفطير . .).

- (كيف علمت ذلك . .؟).

- (سمعتهم يقولون . .).

وقال الأمير الاى حسن بك ، أحد المحققين :

- (حيث إن اعتراف المتهمين لا يوجد فيه اختلاف ،

فلنذهب مع الخواجة (بودين) مترجم قنصلية فرنسا - ،

والدكتور مسارى ، لمعاينة المحل الذى حصل فيه تكسير

العظام ، ثم نعاين المربع (الغرفة) الذى حصل فيه تقطيع

القيس . . والمصرف الذى ألقيت فيه الجثة ، ولناخذ

معنا المتهمين ليدلونا على هذه الأماكن كل منهم على

حدة ، ولنبحث عن مكان تحويل المياه الجارية فى ذلك

المصرف عن مجراها الأصلية حتى يمكننا أن نجد البقايا

التي رميت فيه . .).

فوافق الجميع على ذلك . .

ودمشق لا يخفى عنها شيء، وللحيطان -كما يقولون-  
أذان، إذ سرعان ما انتشرت وقائع الجريمة المروعة، وضرب  
الناس كفًا بكف، وهم بين مصدق ومكذب، قد يشد رجل  
أو اثنان أو ثلاثة ويتصرفون كالحیوانات فی لحظة من لحظات  
الضعف الإنساني، أو الجنون، أما أن يجتمع هذا العدد من  
الرجال المتدينين والمثقفين، ويقوموا بهذه الفعلة الشنعاء،  
وعلى هذه الصورة المثيرة، فأمر لا يصدق عقل... ولكم  
أثارت هذه الصورة الذعر في نفوس الأطفال والأمهات  
بحيث لا تكاد ترى طفلاً إلا وهو في يد أمه أو أبيه...  
واليهود لجأوا إلى ديارهم، وكثيرون منهم هربوا خارج  
دمشق، ولم يعد للمدينة حديث غير قصة الأب (توما)  
الذبيح، وخادمه المسكين إبراهيم عمار... واستطاع بعض  
الشعراء الشعبیین أن يؤلفوا مواويل يرددها الناس فی كل  
مكان.





استطاع سليمان ، ومن بعده مراد القتال أن يرشدا عن مسرح الجريمة ؛ هنا البلاطة المشؤومة التي كانت العظام تدق عليها بيد الهاون ، هنا المكان الذى قطع فيه اللحم إرباً إرباً ، هنا ذبحوا البادري ، هنا خلعوا عنه ملابسه ، هنا كانوا يغنون ويرقصون ويضحكون كى تكتمل الشعائر الدينية بصورة شرعية ، هنا أثار دم على الحيطان . . وأخيراً هنا قذفوا بلحم وعظام الضحية ، واستطاعوا أن يستخرجوا بعض العظام واللحم ، وكذلك قطعة من طربوش البادري ، وأرسلت العينات إلى الباشا حيث تسلمها قنصل فرنسا ، وعرضت بقايا الجثة والعظام على لجنتين إحداهما من أطباء الإفرنج ، والأخرى من الأطباء العرب المسلمين والمسيحيين ، وأما بقايا الطربوش فقد عُرِضت على الحلاق الذى كان يحلق

عادة للبادرى، أقر الأطباء أن العظام والبقايا بشرية وليست حيوانية، كما أعطى الخلاق مواصفات لطربوش البادرى، وقدم أدلة مقنعة على أن الجزء الموجود من الطربوش هو للبادرى نفسه، لم يخف أمر اكتشاف الجريمة على اليهود المحبوسين فى سرايا الحاكم، كل منهم أخذ يفكر فى معجزة تنقذه.. أغلب أفكارهم تدور حول اليهود فى الشام وأوروبا.. إنهم يستطيعون أن يدفعوا الأموال لإنقاذهم أو يعيشوا بكبار الشخصيات العالمية ليتوسطوا لهم.. يجب ألا ينتظروا أكثر من ذلك.. أما الحاخام موسى أبو العافية فقد جلس فى زنزانته حزينا قلقا، لم يكن يفكر فى إنقاذ نفسه بهذه الطريقة، بل كان يفكر، هل ينقذ نفسه أن يبحث عن الحقيقة؟؟ أكان أولا على صواب أم كان مخدوعا؟؟ إنه رجل دين بل يطلقون عليه (العاقل).. هو الذى تسلم الزجاجة التى جمعوا فيها دم الذبيح، أخذها بنفسه وأعطائها إلى (ربى) ديانة اليهود فى الشام كلها الحاخام الأكبر يعقوب العتايى، الرأس المدبر للجريمة كلها، أبو العافية أخفى

الزجاجة المملوءة بالدم تحت ثيابه ، ثم سلمها للحاخام العتايى وهو جالس فى مكتبته الخاصة ، قال له العتايى :

- (سوف نصنع الفطير المقدس ، وسنرسل جزءاً منه إلى بغداد ، يهود العراق يريدون ذلك ، وقد حدثت مكاتبة بهذا المعنى).

أبو العافية يذكر تفاصيل ذلك كله . . يذكر اجتماعه مع العتايى ، ولقاءاته المتكررة مع آل هراى ، ورسم الخطة لجر القيس توما إلى حتفه ، الحادث يدور فى ذهن الحاخام أبو العافية كشريط طويل مرتبط المشاهد ، ويتساءل أبو العافية لم كل ذلك؟؟ إنه سؤال وجيه ، الأخطر من ذلك كله هل ورد شىء من هذا فى التوراة؟؟ مستحيل أن تطلب التوراة المتزلة من عند الله ذبح المسيحين لسبب بسيط هو أن المسيحين لم يكونوا قد وجدوا بعد ، إذن ، هذه العقيدة الفاسدة مختلفة من أساسها ، ابتكرها بعض الحاخامات أو الأخبار الحاقدين أو المجانين . . بالتأكيد! وإذا كان أمر كهذا يتكرونه ابتكاراً فكيف ببقية العقائد والتشريعات التى يمتلئ بها التلمود؟؟ وسأل الحاخام أبو العافية نفسه فى زنزانه :

- (ألا يوجد تفسير واحد معقول لهذا التقليد الدموي الرهيب؟؟ أخذ يحك لحينه ورأسه . . نحن نختلف مع المسيحيين حقاً، وننكر نبوة المسيح وألوهيته، ونفتخر بأننا ربنا مسألة صلبه، ونؤمن أيضاً بأن المسيح الحقيقي الذى نؤمن به، سيأتى يوماً ما ومع الفرسان على خيول وجمال لينقذونا، وليحققوا ملك إسرائيل الكبير من النيل إلى الفرات، ويعيدوا بناء اورشليم الخراب التى نبكى عليها من قديم . . ألا يمكن أن نكون مخطئين؟؟ ألا يجوز أننا نكره المسيحيين لأسباب تافهة أو لمجرد مجيء المسيح بتشريعات ووصايا تختلف عما كتبه الأحرار والحاخامات؟ إن الهوى والتعصب إذا دخل عقائد المتدينين، انزلقوا إلى متاهات خطيرة وأنوا بأشياء عجيبة لا تمت إلى الديانة بصلة . . أنا لم أسمع أن المسيحيين يسفكون دم أحد ممن يخالفونهم فى الدين اعتماداً على عقيدة لديهم، ولم أسمع عن المسلمين أنهم يغدرون أو يقتلون أصحاب الديانات الأخرى أو يمزجون دمهم بدقيق الفطير، إننى لا أفكر فى ذلك هرباً من مجابهة الموت أو جناً من التصدى للقضية التى أحاكم فيها،

ليت إيماني بما فعلت كان قوياً، إذن لقلت ما أعتقد أنه الصواب وليكن ما يكون.. يجب أن أعرف الحقيقة.. أنا الحاخام موسى أبو العافية الذي يبصر الناس بالحقيقة، ويشرهم بديانة موسى، وهو لا يعرف الحقيقة، ولم تصل إليه ديانة موسى نقية خالية من الشوائب.. يجب أن أعرف الحقيقة أولاً.. وسيبان عندي بعد ذلك أن أموت أو تبرأ ساحتى وأعود إلى الحياة..

ليكن هذا الحادث زلزلة كبرى هزت جسدى ومشاعرى وقلبي، كى أفيق وأبحث عن طريق الحق..).

ثم خطا الحاخام أبو العافية فى حزم صوب باب الزنزانة، والليل دامس صامت، ودق الباب بيد قوية فأتى الحارس:

- (ماذا تريد؟؟).

قال:

- (أنا الحاخام موسى أبو العافية.. أريد بعض كتب الإسلام والمسيحية..).



لم يفهم الحارس ماذا يريد الحاخام بالضبط ، وهل هو  
يمزح أم يقول الحق ، أم ترى أصابته لوثة؟ وما أكثر ما  
يحدث ذلك بالنسبة للمسجونين الذين لا يطيقون وحدة  
الحبس وظلامه القاتل ، فهتف الحاخام فى ضراعة :

- (قل لرئيسك ذلك . . ) .

هز الحارس رأسه ومضى إلى رئيسه الذى اتصل بدوره  
ببعض الكبار المتصلين بشريف باشا الوالى ، وتم للحاخام  
فى اليوم التالى ما أراد .

جلس يقرأ ويقرأ . وكان يقارن ما يقرأه فى الديانة  
المسيحية والإسلام بما قرأه طوال السنين الفاتية فى التلمود  
(لماذا لم أفعل ذلك منذ زمن طويل؟؟) .

ثم طلب أحد العلماء المسلمين ليستفسر منه عن بعض  
القضايا التى تعذر عليه فهمها فى الشريعة والسيرة النبوية . .  
فأحضره إليه ، قال الحاخام أبو العافية للشيخ :

- (رفاقى يريدون أن يخرجوا من هذا السجن الصغير ،  
أما أنا فأريد الخروج من السجن الكبير . . ) .

---

هز الشيخ رأسه قائلاً:

- (ماذا تقصد بالسجن الكبير؟؟).

- (خرافات التلمود التي دبّجها الحاقدون، وعشت في متاهاتها سنين طويلة، دون أن أسمع لنفسى بمعارضتها، أو مجرد مناقشتها.. أيها الشيخ.. كيف أخرج من هذا السجن الكبير؟).

قال الشيخ ووجهه يشرق نوراً:

- (ليس بينك وبين الحرية سوى كلمة واحدة..).

قال الحاخام:

- (ما هي؟؟).

رد الشيخ:

- (لا إله إلا الله، محمد رسول الله..).

دار الحاخام بنظراته فيما حوله، نظر إلى السماء الزرقاء.. كان هناك طائر أبيض يشق أجواء الفضاء، ثم

صوت مؤذن ينادى بصوت مؤثر: (لا إله إلا الله، الله أكبر) .. يالها من صدفة عجيبة! ولأول مرة يشعر الحاخام أن أفراحاً قدسية في قلبه وروحه أنشودة شجية وتمتم:

- (أيها الشيخ، حدثني عن الله ..).

قال الشيخ:

- (ليس كمثله شيء .. عادل برّ رحيم .. بارئ الأرض والسماء، سميع عليم ..).

وتسامل الحاخام:

- (يقول التلمود إن الله يكي من أجل أبناء إسرائيل المعنيين ..).

ابتسم الشيخ قائلاً:

- (ما شاء الله أيها الحاخام .. إنه سبحانه وتعالى قوى عزيز .. وكلنا لآدم وأدم من تراب ..).

وتمتم الحاخام:

- (أيها الشيخ حدثني عن الله ..).

---

رد الشيخ :

- يقول: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾ [الحجرات :  
١٣] .. ويقول: ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ  
مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ  
جَمِيعًا﴾ [المائدة : ٣٢] .

ترقرقت الدموع في عيني الحاخام وقال :  
- (زدنى .. زدنى ..).

رتل الشيخ بصوت رقيق :  
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ  
الْغَرْدِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف : ١٠٧] .  
- (وعن اليهود ماذا قال ٩٩ ..).

- قال الكثير .. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ  
اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ  
يُغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة : ١٨] .

بكى الحاخام بدموع غزيرة وهو يصيح :

- (ويحى .. ويحى .. كيف لم أفكر وأنا أخوض بحار الضلال؟؟).

وقال الشيخ :

- (تلك مشينة الله .. فلتنظر من جديدة، والمؤمن يرى بنور الله .. الكلام كثير .. وتستطيع أن ترد المنهل العذب بنفسك .. فترتوى من الحقيقة العذبة .. ولتعلم أيها الحاخام أن الله يقول : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] ..

وقف الحاخام وضم الشيخ إلى صدره وقال فى توسل :

- (أين الطريق؟؟).

قال الشيخ :

- (انزع نفسك بقوة من ماضيك العفن، وتخلص من

أوزار الأيام التعسة.. ولتلق الله بقلب جديد.. وفكر جديد..).

صاح الحاخام:

- (.. الحرية...).

قال الشيخ:

- (قلت لك ليس بينك وبينها سوى عبارة قصيرة  
الجنى. كبيرة المعنى..).

تطلع الحاخام صوب السماء ونادى بصوت يخالطه  
البكاء:

- (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول  
الله..).

- (بشارك أيها العيد. نلت منك..).



انهالت الاعترافات، حاول الحاخام سلانيكلي أن ينكر، لكن كيف ينكر التهمة وقد اعترف الحلاق والحادم وآل هراري جميعهم ويوسف لينبادو، كما وجدت بقايا الجثة، ومكان الجريمة وأكدت كل الشواهد والقرائن على ثبوت التهمة، كما حضر التحقيق الوالى بنفسه، وقناصل الدول وخاصة فرنسا والنمسا وإنجلترا، ثم أعلن الحاخام موسى أبو العافية إسلامه وتسمى باسم (محمد أفندي أبو العافية) وكان إسلامه ضربة قوية للتجمع اليهودي وللمخطط الصهيونى، الذى يسيرون عليه، إذ إن إسلامه يعنى الاعتراف بالجريمة، والنفور منها، وإظهار الديانة اليهودية بمظهر يسيء إلى الإنسان وكرامته، وإلى تلك العقيدة، وأخذ الناس يناقشون سر

فساد اليهود، أهو لطبعة موروثة فيهم؟؟ أهو بسبب هذه التعاليم التي اخترعها طائفة من الأحبار الحاقدين وتربت عليها الأجيال لقرون عديدة؟؟ أم أهو الطمع اليهودي الذي يريد أن يستغل الناس، ويستولي على مقدراتهم، وينظر إلى غيرهم من الأمم (أبناء نوح) - كما يقولون - على أنهم دونهم من حيث الفكر والروح ووظيفة الحياة؟؟ أم لهذه الأسباب مجتمعة؟ هذا الجدل الحامي الذي ساد أنحاء دمشق والشام، انتقل إلى شوارع القاهرة وبعض المجتمعات الأوروبية، الجميع آمنوا بأن هؤلاء للمخدوعين عنصر فساد، وأداة بغض، ورمز انحراف وضلال، وأن وجودهم خطر على البلاد التي يعيشون فيها، وجرت اتصالات كثيرة وعلى أعلى المستويات لإثناء الحاخام أبو العافية عن اعتناقه الإسلام، وبذلت له الوعود الخلابة أحياناً، والتهديدات أحياناً أخرى لكن الرجل أبى أن ينحاز إلى الضلال، وقال في ثقة:

- (لم يبق لي من العمر إلا قلة، وتجرى الطويلة أثبتت فساد ما كنت مقيماً عليه من عقائد، إن الفكر أهو سيد



الموقف، وأنا أرى وأسمع وأقرأ وأناقش، دون التزامات مسبقية أو انتماءات قديمة، وقد وجدت أن الإسلام هو الدين الحقيقي، ولا يهمنى، وقد وصلت إلى الحقيقة، أن يحكم على القضاء بالموت أو يطلق سراحى، ولا أبالى أسخط اليهود أو رضوا، خسرت الملة اليهودية أن كسبت، إن ما أفكر فيه هو الحقيقة، وقد نزعت العصابة السوداء من فوق عيني، وانطلقت إلى عالم الحقيقة، حيث الحرية والنقاء والإخاء.. حيث الإيمان الذى لا لبس فيه ولا غموض ولا انحراف، قال شيخى المؤمن الجليل: (إن الإسلام يجِبُ ما قبله)، وهأنذا أولد من جديد برغم شيبى وممارستى للطقوس الرهيبة فى الليالى الحالكة السوداء.. نظرات البراءة فى عيني القسيس توما تؤرقنى.. دمه النازف يصرخ بى.. كنت أراكم يا معشر اليهود كالذئاب الجائعة وقد انقضت على الفريسة، وإذا كان للذئب عذر فى أن الفريسة هى طعامه، ومن حقه أن يلتهمها، فماذا كان عذركم، الفطيرة المقدسة؟ يا للمهزلة!! وما يحتويه الفطير من أسرار غريبة وتأثير سحرى؟ يا للخرافة!! لن يعود

الشباب يا داود . . ولن تنتصر أيها الحاخام العتايى وتسود العالم ، ولن تكسب الملايين يا هارون ولن تدخل الجنة يا يوسف لينبادو . . أيها الحمقى المخدوعون . .).

وجلس الحاخام أبو العافية ، أعنى محمد أفندى أبو العافية ، يسطر للوالى شريف باشا هذه الرسالة التى ما زالت مخطوطتها باقية . التاريخ يوم الثلاثاء فى ٧ محرم سنة ١٢٥٦ هجرية ، صورة تقرير محمد أفندى أبو العافية للمحرر بخطه مرفوع للاعتاب الشريفة :

(حيث صدر الأمر الكريم ، نحرر الذى نعلمه فى قضية قتل البادرى توما ، وبما أنى قد صرت من المؤمنين بالله تعالى ورسوله سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، يلزمنا أن نقول الحق . . إن الحاخام العتايى (ربى) ديانة اليهود فى الشام ، تكلم معنا قبل الجريمة بعشرة أو خمسة عشرة يوماً . . وقال إنه يلزم له دم ، كما أوصت الديانة اليهودية ، وقد اتفق مع داود هرارى وإخوته على تنفيذ ذلك فى منزلهم . . إلخ).

واستطرد محمد أفندي أبو العافية في خطابه الطويل بلغة عامية ركيكة يصف تفاصيل كل ما حدث إلى أن قال في آخر خطابه : (والدم المطلوب عند اليهود لأجل الفطير الذي يصنعونه يوم وقفة عيدهم . . وقد فعل اليهود ذلك أكثر من مرة وقبض عليهم وسبقوا للحكام . . وهذا القضايا مذكورة في كتاب يتداول بين اليهود اسمه (سفر دهوروت) حيث يزعم هذا السفر إنها تهمة باطلة . . ولا شك أن القضية المطروحة الآن تظهر الحقيقة جلية).

الآن عبدكم مستجير بالله تعالى ورسوله سيدنا محمد، وقد هدانا الله إلى دين الحق آمليين العفو من مراحم دولتكم والأمر لمن له الأمر . . أفندم).

### توقيع

محمد مسلماني

(الحاخام موسى أبو العافية سابقا)

وعقد مجلس كبير حضره شريف باشا وقناصل الدول وللحققون، وحدثت مواجهة بين محمد أبو العافية وريي ديانة اليهود بالشام الحاخام العتايي، المحرض الأول على

---

الجريمة ، وكانت هذه الجلسة من نوع فريد ، فقد أحضر أبو العافية كتباً يهودية ، وأسفاراً وشروحاً قديمة وأخذ يستخلص منها العقيدة اليهودية المحرفة ، ويعرضها أمام الحاضرين ، ثم يناقشه فيه العتايي ، ويوافق عليها ، وقد يزيد في شرحها . كما تقدم الكثيرون من الحاضرين ببعض استفسارات وأسئلة كثيرة أجاب عليها العتايي وأبو العافية ، وسجلت كلها في محضر الجلسة ، ووقع الحاخامان بالعلم والموافقة ، مذكوراً فيه المراجع والصفحة ورقم المقطع بصورة أذهلت الحاضرين من رجال الدول الأجنبية . . ومما قاله العتايي :

- (إن كتب اليهود عادة تذكر في مقدمتها أن الكلام يختص بالدول القديمة منذ آلاف السنين ، وفي ذلك خداع للناس وتعمية الأمر عليهم ، والمقصود منها عدم إثارة المشاكل ، والتمكن من طبع هذه الكتب في أوروبا ، حتى لا تلفت نظر المسيحيين هناك ، وفي معرض الحديث عن بعض الأماكن البيضاء في كتب اليهود والتي لا تكتب فيها كلمة أو عبارة ، شرح الحاخامان أن المقصود من وراء ذلك ، حذف

اسم المسيح والمسيحيين ، وهذا عرف متفق عليه بين علماء اليهود ، فهم يستطيعون قراءة هذه الفراغات لكن غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى لا يعرفون . . ) .

وكانت هذه الاعترافات عن العقائد المنحرفة الغربية في الديانة اليهودية ، أخطر بكثير من الاعترافات الخاصة بمقتل الأب توما وخادمه ، وهذا ما أزعج الجالية اليهودية في الشام ، بل في أوروبا أيضاً ، إذ تحركت جمعية الاتحاد الإسرائيلي في أوروبا بسرعة مذهلة ، لوقف التماذى في هذا الكارثة ، ولم يكن أول طلباتهم إلا التوقف عن البحث في ديانة اليهود ومعتقداتهم ، وحذف ذلك كله من محضر الجلسات ، وكذلك فعل اليهود المقيمون في الشام وبغداد وغيرهما من الدول العربية وممتلكات الدولة التركية على السواء .

هكذا اكتملت عناصر الجريمة فكراً وتنفيذاً ، وتعرى اليهود من فكرهم ودهانهم ، ولم يعد هناك على الإطلاق محل للرد العلنى أو الإفلات بطريقة قانونية من المأزق الخطر

---

الذى سببته قضية مقتل البادري توما وخادمه إبراهيم  
عمار . .

وفرك (سانتى الصيدلى) صديق الأب توما يديه فى غير  
قليل من الرضا وقال :

- (دم البادري لم يذهب هباءً ، وقد حانت ساعة  
القصاص . . وهذا يشفى نفوس المحزونين) .





ارتدت ملابسها السوداء ، ووضعت خماراً شفافاً على وجهها الفاتن ، وأخذت معها بعض الخدم ، وانطلقت إلى سراى الحاكم تريد أن ترى زوجها فى زيارة خاطفة ، ولم تمتنع السلطات المختصة عن إعطائها ترخيصاً بذلك ، وحينما جاء إليها زوجها ، كان كالهيكل العظمى ، تكسوه جلود شاحبة ، وكانت عيناه غائرتين تفيضان نعاسة وآلماً ، هتفت فى حزن :

- (داود) .

- (كاميليا . . لشد ما تشوقت إليك !!) .

- (أراك مريضاً . .) .

- (لقد تضعضعت تماماً يا حبيبتى . . لم أعد أحتل . .) .

نزلت دموعها فى صمت ، نسيت كل شىء فى ماضيها  
المضطرب ، كان داود تمثالاً مجسماً من البؤس والشقاء  
ونتمتم :

- (إنى لا أرى معنى لحياتى المحطمة ، ليتنى أموت . . ) .

- (لا تقل هذا الكلام . . ) .

- (أنا رجل تقدمت بى العمر ، ومن الحق أن أكذب  
وأدعى الشجاعة . . ) .

- (لكل شىء نهاية يا زوجى) .

- (لشد ما أخاف هذه النهاية يا كاميليا) .

وهز رأسه فى أسف ولس يدها فى امتنان ، ثم قال :

- (ما معنى أن يقضى الإنسان سنواته الأخيرة هكذا؟؟

إن رجلاً مثلى لم يخلق لعناء كهذا ، إننى أبحث عن العزاء  
فلا أجده . . كل شىء حولى يجلبه السواد . . المستقبل كالح  
الوجه ، ذهبت نضرة الحياة وحلاوتها . . آه . . كلما فكرت  
فيما حدث أعجب من نفسى أشد العجب ، لم يكن لكل ما



جبرى مبرر حقيقى .. ليست المألة دماً وفطيراً مقدساً ..  
هنا فى قلب الإنسان تكون التقوى أو يكون العناء).

أمسكت بيده فى شدة وضغطت عليها فى ثقة :

- (كن متماسكاً، لا يصح أن يتزعزع إيمانك ..).

ابسم فى مرارة :

- (مازلت وسأظل اليهودى الصالح، لن أتخلى عن  
ديانتى، أنا قوى الإيمان لكنى واهن الجسم .. حزين  
الفؤاد ..).

ثم التفت إليها :

- (هل أحضرت شيئاً من شراب ..).

- (وطعام .. أيضاً).

- (لا أريد طعاماً، صبى كأساً من نبيذ، وهاتى  
التبغ ..).

تنهد فى حسرة وهو يتناول منها الأشياء، ثم قال :

- (كيف أولادنا؟ إنهم لا يفارقون خيالى لحظة ..).

- (أرسلتهم بعد الحادث إلى أقاربهم في بيروت . . ولم يعودوا حتى الآن . . إنهم بخير . .).

سعل ، ثم نظر إليها في تقدير :

- (ليس لدى شيء أخاف عليه سواكم . . وليس لى فى الصبر باع . .).

قالت فى تلثم :

- (اليس هناك من وسيلة للخلاص؟؟ . .).

- (الامل فى قلبى لا يموت . .).

- (لمَ لا تفعل شيئاً حاسماً لتنجى نفسك . .؟؟).

كان ذكياً لا يفوته التلميح ، وابتسم فى مضض وقال :

- (أفهم ما تريدین قوله ، تريدین أن أفعل ما فعله الحاخام أبو العافية).

قالت كاميليا فى حرج :

- (نحن لا نفكر إلا فى نجاتك).

- (مستحيل أن أفعلها).

ومال عليها هامساً :

- (أوروبا تحركت .. ولن يتركونا نضيع سدى ..).

- (لم أعد أثق في أحد يا داود، ما المانع في أن تعتق الإسلام ظاهرياً، وتفعل فعل اليهود؟؟ ألا تذكر يهود (الدوئما) في تركيا؟ ألا تذكر آباء لنا أقدمين في أيام مجد الإسلام؟؟ كلهم فعلوا ذلك، وبقوا يهوداً مخلصين .. لم أعد أفكر في أحد سواك ..).

تتم في حرة :

- (إنى أتعذب عذاباً مهولاً .. لا أنام الليل .. تلهبني الأفكار القاسية، لكنى لن أحيّد شعرة واحدة عن ديانتى .. هناك شيء اسمه الكبرياء .. وهناك شيء اسمه الأمل في أن يعود المجد القديم .. لا تنظري إلى حالنا السيئ هنا .. هناك في الخارج يهود حقيقيون يسّرون دفة العالم، ويمسكون بأزمة المال، ويحركون السياسة .. إنها لصفقة خاسرة إذا أنا غامرت بترك يهوديتى ..).

وكاميليا من عاداتها أن تقف عاجزة أمام منطق زوجها داود وصلابته، لا تستطيع في يوم من الأيام أن تفند دعاويه، أو تخطئ رأيه، التفكير الجاد يرهقها، تكره الصراع والمقاومة في مجال الرأي، وتكتفى بأى شيء، وتؤمن سريعاً بقول محدثها متى رأت فيه الإصرار، ووجدت لديه المنطق والحجة، أية حجة ..

همست في حيرة:

- (لماذا نعيش؟؟).

- (أجيبى أنت يا كاميليا).

- (لتنعم بالحياة ..).

ضحك ضحكة مرّة وتمتم:

- (أنا لم أنعم بالحياة قط .. الذهب في يدي وأريد المزيد .. الطعام كثير .. وأحلم بشيء آخر، لدى البنات مع البنين لكنى أشعر بالحاجة والفقر .. أنفق أحياناً عن بذخ .. ولا أستسيغ لذة في ذلك .. ما معنى ذلك يا كاميليا؟ نعيم الحياة ليس هو مصدر السعادة، وظنى أن ممارسة الحياة هي

السعادة . . أن أحيا وأفكر وأمرض وأشفى وأشبع وأجوع  
واتعب وأستريح . . تلك هي السعادة . . هذا ظنى . .

ثم تفهم كاميليا شيئاً، التصقت به ، ضمت إليها فى حنان  
بالغ، شعرت بتواءات عظامه تغوص فى لحمها الطرى،  
تألمت فى عمق، أحزنتها حالته التعبة، وتدهوره البشع،  
أى عذاب بعد ذلك؟

تمتم فى انفعال :

- (إذا أنا مت فلا تحزننى كثيراً . . أعرف أن النصح فى  
مثل هذه الأمور لا يفيد، لكنى أقولها لك صادقاً . . عودى  
إلى الحياة وانتصرى على سخافاتهما . . كونى أنت الأم  
والأب للأسرة).

عادت الدموع إلى عينيها :

- (لا تفكر فى أمر كهذا يا داود . .).

رد فى حيرة :

- (يا إلهى . . إنى أتخبط . . يبدو أننى لا أحسن الكلام  
فى هذه الأوقات . .).

---

جفف لها دموعها وريت على كتفها وقال :

- (القتل فى كل وقت .. وكل مكان . لست أدرى لماذا  
هذه الضجة كلها من أجل البادى ؟ بالأمس أهلكت الحرب  
الكثيرين ، مات رجال .. وأطفال .. وقساوسة .. وشيوخ  
ويهود .. هل القتل الجماعى مباح وحده ..؟؟).

نظرت إلى زوجها فى دهشة ، إن كلماته عجيبة ، يبدو أن  
تفكيره قد اختل ، أيريد أن يرتكب الناس جرائم القتل دون  
حساب أو عقاب ؟!

قالت مستغربة :

- (هل لو قتل أحد من عائلة هرارى .. أكنتم  
تسكتون ..؟؟).

ضحك داود فى بلاهة وقال :

- (بالطبع لن نسكت .. فرجل من أبناء هرارى يختلف  
عن أى رجل آخر ..).

- (لكننا أمام القانون سواء ..).

---

- (إنه قانون ظالم . . .).

- (كيف؟؟).

- (لقد خلقنا الله أسياداً وحكاماً للعالم، والله في سمائه يبكى من أجلنا ويذرف الدموع حتى . . .).

قالت في شيء من القلق:

- (كف عن هذا الكلام الآن يا داود . . .).

نظر إليها قائلاً:

- (يوسف هرارى يحتضر . . . ويوسف لينادو مات بالأمس من شدة المرض . . . مات البادري فليذهب إلى الجحيم . . . وأسلم أبو العافية، العار كل العار له . . . وأفشى سرنا مراد وسليمان عليهما اللعنة الأبدية . . . سنتظر المسيح الحقيقي القادم هو وفرسانه راكبين الإبل والجياد، وبكاؤنا على أورشليم الخراب سيظل مستمراً حتى . . .).

وقالت مقاطعة:

- (ويحك! العسكر ينظرون إليك . . .).

وجاءهما صوت الحارس :

- (انتهت الزيارة ..).

نظرت إليه في حيرة، وجرت حطامها، وعادت إلى الطريق.

دمشق تعج بالحياة، والناس البسطاء يمرحون ويأكلون ويشربون، والأغنيات الشعبية -برغم مسحة الحزن- تعمر الطريق، ضحكات تشق عنان السماء .. ورجل نصف عار يتغنى بمجدح الرسول، وصبايا في الشرفات يرددن أهانج الحجييج .. ومثذنة عالية تسمو صوب السحاب وعليها رجل يؤذن للصلاة .. وكنيسة أجراسها تدق، ومزاد علني يرتفع فيه صوت الدلال، والعالم يسير، وأطفال صفار يجلسون في شمس الشتاء الساطعة يقرأون في المصاحف .. الكتب المقدسة في أيدي الأطفال، يا إلهي .. لا أسرار ولا غموض .. الدين للجميع .. ليس هناك أسرار مخبأة في دهايز مظلمة، وليست هناك طقوس خاصة بالأخبار الكبار أو الحاخامات العظام .. المصحف يقرؤه الصغير والكبير،



أكان أبو العافية على حق حينما اعتنق الإسلام؟؟ هذا ما كانت تفكر فيه كاميليا وهي تدلف إلى حارة اليهود...

كان أحد اليهود يقترب منها وهي تمشى فى الحارة ويقول:

- (كيف حاله؟).

همت أن تقول لهم إنه فى أسوأ حال، وإنه نصف مجنون، لكنها ضحكت ساخرة، وقالت شيئاً آخر، قالت فى اعتزاز:

- (داود كالجبل الأشم... إيمانه أقوى من إيمان الحاخامات العظام).

ولجأت إلى حجرتها فور وصولها، وهربت من الحقيقة المرة إلى النوم العميق، ولم تفق إلا فى اليوم التالى، حينما جاءت إليها الخادمة أستير وقالت:

- (سيدتى... إنى راحلة...).

نظرت كاميليا إلى أستير، كانت تحمل فى يدها صرة ملابسها وترتدى ثيابها الكاملة، وتمتمت:

- (إلى أين يا أستير؟؟).
- (سأذهب إليه .. إنه يتظرني .. وسأرحل معه إلى مكان آخر ، لم يعد لنا عيش في هذا المكان).
- كانت آثار النوم عالقة بأهداب كاميليا ، ومع ذلك فقد فهمت بعض ما تقصده الخادمة ، وتساءلت :
- (من الذى يتظرك؟؟).
- (مراد ..).
- (كيف ..؟؟ إنه فى السجن ..).
- (لقد صدر العفو عنه هو وسليمان الحلاق .. وغادرا السجن ..).
- قالت كاميليا وقد وثبت من سريرها :
- (وداود .. ما مصيره؟؟).
- قالت أستير متلعثمة :
- (وتم العفو عن أبو العافية ..).
- (وداود؟؟).

طاطات أستير رأسها .. ولم تنطق.

- (تكلمي يا أستير ..).

- (لا أعرف .. غير أنهم قالوا إن يوسف هرارى مات  
بالسكة القلبية ..).

ووقفت كاميليا شاحبة ، وقالت :

- (هل مات داود هو الآخر؟؟).

- (لا إنه حي .. بكل تأكيد ..).

- (لم لا تقولين ذلك منذ البداية؟؟).

وسادت فترة صمت قالت أستير بعدها :

- (أنا لا أتخلى عنك يا سيدتى ، لكن الرحيل أمر

ضرورى .. هكذا يريد مراد القتال .. والخير أن نرحل ..).





عاد محمد أفندي أبو العافية (الحاخام أبو العافية سابقًا) إلى بيته، كان يمشى في حارة اليهود مرفوع الرأس، وكانت النظرات المسددة إليه كأنها سياط حارقة تلهب جسده، ومعاني الحقد تنصب عليه من كل جانب، ولم يجرؤ أحد من اليهود أن يرفع صوته بكلمة .. لكن الأمر كان مختلفًا تمامًا عندما بلغ بيته .. اجتمعت الأسرة من حوله، كانوا فرحين بنجاته، قلقين مضطربين من أجل ما حدث، وكان هو يدرك صعوبة الموقف .. وتبادلوا العناق والقبلات، وقال ابنه بعد فترة وجيزة:

- (يا أبي كيف تركت الديانة .. ٩٩).

قال أبو العافية في ثقة:

- (لقد اخترت طريقى .. وأنا لم أترك الديانة لأسقط

فى فراغ، ولكنى تدين الدينونة الحقيقية حسبما أعتقد  
الآن ..).

رد الابن :

- (لندع الحق والباطل الآن .. المهم سمعنا وشرفنا بين  
اليهود ..).

ابتسم محمد أفندى أبو العافية وقال :

- (أمام الله فى الآخرة .. سوف نقف فرادى، لن  
يحمل أحد عن أحد عقابه، ولن يشفع حاخام لرجل أو  
امراة من أتباعه .. بل سيتحمل أوزاراً على أوزاره، دون أن  
ينقص ذلك من أوزار تابعه .. فلتمت كل المخافات  
القديمة التى أفنيت فيها عمرى .. أيها الأبناء .. من اليسير  
أن يضحي المرء بنفسه ويتقبل الموت بشجاعة، وقد كنت  
على وشك أن أفعل ذلك، لكن يجب أن تدركوا أن  
الشجاعة الحقيقية هى أن تتزع نفسك من عنف الماضى الذى  
درجت عليه، الشجاعة أن تختار، والجديد دائماً يبعث على  
الشك والخوف .. لكى تكون مسلماً لابد أن تكون حراً  
شجاعاً، عندئذ تصل إلى الجنة الحقيقية ..).

---

ثم أخذ يخاطب أفراد بيته واحداً واحداً، حتى الأطفال كان يحادثهم، لم يجب أحد، وقفوا صامتين حائرين، عندئذ قال:

- (أنا لا أفكر في الشكليات والمظاهر التافهة .. لا يهمنى ما يقوله اليهود أو غير اليهود .. القضية قضية حق .. أو باطل .. خطأ أو صواب .. وأنا اخترت ما اعتقد أنه حق وصواب وليكن ما يكون .. ذلك جوهر الأمر كله ..).

ثم نظر إليهم مرة أخيرة، وقال عبارة جامعة فاصلة:

- (يا أهل بيتي .. لسوف أغادر حارة اليهود إلى الأبد .. سأغادر حارة اليهود .. أتفهمون؟ ومن أراد منكم أن يتبعنى .. فليتبعننى .. وسأعيش هناك، إلى جوار المسجد الأموى العريق .. وعندما يؤذن المؤذن للصلاة، فسأكون إلى جوار المنبر فى الصف الأول ..).

وتركهم وانصرف.





وعاد سليمان الحلاق هو الآخر إلى بيته ، استقبله أهله بحرارة بالغة ، لم يعتب عليه أبوه ، ولم تلمه زوجته ، بل فتحت ذراعيها لاستقباله ، اليهود فى الحارة يدركون أنه فتح الباب للفضيحة ، وشهد ضد إخوانه ، ولم يستطع أحد أن يسد الثغرة التى فتحها يديه ، ولم يكثر لذلك كثيراً ، فهو وحده يعلم الظروف القاسية التى رزح تحت أعبائها ، وليس حريصاً على أن يلتمس المعاذير لنفسه أو يشرح وجهة نظره لليهود ، ولا يفكر مطلقاً فى أن يدافع عن انهياره ، سيان عنده أن يقول الناس لقد ضعف سليمان وخان الأمانة ، أو يقولوا كان الله فى عونته ، لقد تحمل أقصى ما يستطيع ، ولطاقة الاحتمال لدى الإنسان حدود . . فليقولوا ما شاءوا ، لقد أراد أن يتخلص من هذه الورطة ، وخرج إلى

الوجود من جديد، الحياة عند سليمان أئمن وأعظم من  
المبادئ. . أروع شيء أن يعيش الإنسان، أما الموت والسجن  
فكلاهما أمر رهيب، من الصعب أن يطيقه البشر.

قالت له زوجه :

- (فيم تكفري يا سليمان؟؟).

قال بوضوح لا كذب فيه ولا زيف :

- (أفكر في نفسي وبيتي. .).

قالت ببساطة :

- (هذا عين العقل. .).

أردف سليمان شاردًا :

- (وتعلمت شيئًا لا أنساه مطلقًا. .).

- (ماذا. .؟؟).

- (الأمن هو أعظم ما في الحياة. .).

- (أجل. .).



- (ولا يهم بعد ذلك يا زوجتى أن يكون الإنسان غنياً أو فقيراً، الأمن كثر ثمين وسعادة كبرى...).

قالت:

- (أو تعتقد أن اليهود سيتركوك فى حالك... ١٩٩٠).

قال فى ثقة:

- (لن يجرؤوا على أن يفعلوا شيئاً، لقد اعترفنا جميعاً... ولا يجهل أحد الظروف التى أرغمتنا على إظهار الحقيقة...).

قالت وهى ترمقه فى تساؤل:

- (ظنوا أنك على وشك أن تعتنق الإسلام كما فعل أبو العافية).

رد بهدوء:

- (لم أفكر فى ذلك بعد أن وعدونى بالعضو... كنت أريد العضو بأى ثمن وقد حصلت عليه).

قالت:

- (معنى ذلك أنك . .).

قاطعها قائلاً :

- (أجل لو لم يكن هناك من وسيلة لأنقذ نفسى سوى الإسلام لفعلت، لكن الظروف لم تلجئنى إلى ذلك لحسن الحظ . . قلت لك إن حياتى وأهل بيتى أهم لدى من كل مبادئ الدنيا . .).

اقتربت منه ثم التصقت به وهممت فى أذنه :

- (إنى لجد سعيدة بأنك لا تفكر إلا فى نفسك وأهل بيتك . .).

نظر إليها فى شوق ولهفة ثم توجه إلى أبنائه وقبلهم فى حرارة وقال :

- (اذهبوا إلى جدكم فى الحجرة الثانية . .).

وأردفت زوجه :

- (هيا يا أجبائى . . أبوكم متعب ويريد أن ينام . .).

عندما انصرف الأبناء قال سليمان فى توتر :

- (ها قد عادت الأيام يا زوجتى . . وكان يجب أن تعود . . وبأى ثمن . .).

ثم ضمها إلى صدره فى شوق جائع . .

وفى اليوم التالى ذهب إلى حانوته ، فى الطريق لاحقته العيون والتعليقات الهامسة ، بعضهم اقترب منه وصافحه ، وآخرون بصقوا على الأرض بالقرب منه ، تناثرت من حوله كلمات بذينة ، تجاهل السخافات والتعليقات الجارحة ، ثم فتح باب الحانوت ، أزال الغبار عن المقاعد والآلات والنوافذ ، وجلس ينتظر ، وبقي فترة طويلة ، دون أن يأتى إليه زبون ليحلق شعره ، ليكن فالأمر يحتاج إلى وقت ، وكثير من الناس لم يعلموا نبأ خروجه ، وكثير من اليهود سيقاطعونه بالتأكيد ، هذه المقاطعة لن يعبأ بها ، والزمن كفيل بمحو الكثير من سوء الظن . . وليس عليه سوى الصبر . . وقبيل الظهر فوجئ سليمان بأعداد كبيرة من الناس تهل عليه . . ابتسم خفية . . ثم بدأ يمارس عمله وسط الصمت المتوتر . . وبعد فترة لا يدرى سليمان أطالت أم قصرت ، وكان يحلق شعر طفل صغير ، قال الطفل :

- (حافر . . إياك أن تذبحنى كما ذبحت البادري . .  
إننى أخاف منك خوفاً شديداً . . ) .

وضج جميع الحاضرين بالضحك .

- (أنا لم أذبحه يا بنى . . ) .

وكان هذا الحديث العابر بداية لنقاش طويل ، انهالت  
الأسئلة والاستفسارات على سليمان الحلاق ، كان حذراً ،  
حاول أن يهرب من الإجابة ، ولم يشف شغفهم للحديث  
وكان يقول :

- (أنا رجل حلاق مسكين لا دخل لى بشىء . . ) .

- (كيف مات يوسف لنيادو يا سليمان؟؟) .

هنا استطاع أن يجيب :

- (كان مريضاً فمات . . لا دخل لأحد بموته . . لا  
تصدقوا ما يشاع ، إننى أقول الحقيقة . . لم يتعرض لأى  
أذى . . ) .

قال زيون يجلس قرب الباب :

---

- (وهناك شائعة تقول إن يوسف هرارى هو الآخر مات ..).

ردّ سليمان :

- (تركته مريضاً يصعد أنفاسه فى صعوبة .. إن الشيخوخة والمرض لا يمكن أن يدعاه يعمر طويلاً .. أنتم تعلمون أنه مريض منذ زمن بعيد .. وأنا لا أكذب شائعة موته لقد تركته يحتضر ..).

واقترب أحد الزبائن من سليمان وهمس :  
- (أنت نذل ..).

نظر إليه سليمان فى رقة ، لم يثر أو يحتد ، وإنما قال :  
- (سامحك الله ..).

- (كان الأوفق أن تجلس فى البيوت مع النساء ..).  
- (أنا لا أنقم عليك ولكنى أرئى لحالك .. ولن تفهم لغتى لسبب بسيط ، هو أنك لم تخض التجربة).  
ثم التفت سليمان إلى الحاضرين وقال :

- (من عليه الدور فى الحلاقة يتقدم ..).

وواصل سليمان عمله دون اكتراث ، لكنه لاحظ أن كثيراً من الأولاد والنسوة والفتيات والفتيان كانوا يمرون فى الشارع أمام حانوته ، ويسترقون النظر إليه ، وكان سليمان يرى من خلف البراقع فضولاً كبيراً ، وحاول ألا يهتم بذلك .

وفى المساء دُق باب بيت سليمان ، وقال لزوجته فى إصرار :

- (لا تفتحي الباب لأحد ..).

- (لعله أحد الأصدقاء ..).

- (ليس لى أصدقاء ، لينهبوا إلى الجحيم ..).

- (لعله مريض يريد علاجاً منك ..).

- (لن أمارس مهنة الطب بعد اليوم ، تكفينى الحلاقة ، ولن أذهب لبيت أحد ، ولن أغادر بيتى فى المساء لأى سبب كان ..).

لكن الدق مستمر على الباب، قالت زوجته :

- (لسوف أذهب لأرى من الطارق دون أن أفتح الباب ..).

عندما ذهبت إلى الباب هفت بصوت خفيض :

- (من؟)

وجاءها صوت في الخارج :

- (افتحي .. أنا مراد الفتال .. افتحي .. إنني أعرف أنه هنا .. أريد له الأمر مهم ..).

ترددت برهة، لكن سليمان أشار إليها بأن تفتح، ودخل مراد ومعه أستير، قال مراد :

- (حكموا على الباقيين بالإعدام ..).

قال سليمان ببرود :

- (هذا لا يهمني في كثير أو قليل ..).

- (وأنا سأغادر دمشق .. أنا وأستير ..).

قال سليمان هذه المرة دون اكتراث :

- (رافقتك السلامة ..).

- (وأريد منك قرضاً بسيطاً ..).

ضحك سليمان فى سخرية :

- (خاوى الوفاض يا حبيى ..).

- (قلت لى فى السجـن إن لديك بعض المال

المذخر ..).

هتف فى جفاف :

- (لا أريد أن أراك ثانية لقد انتهى كل ما بيننا ..).

تساقط العرق على جبين أستير، وارتبك مراد، ثم

وقف، متجهين صوب الباب وبعد أن أغلق سليمان الباب،

ضحك فى شماتة وقال :

- (لم أعد أكثرث لشيء، ولم أعد أعترف بشيء اسمه

الصداقة أو الأخوة .. إننى لا أرى حولى إلا وحوشاً فى

غابة، هكذا الناس .. إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب ..



هلمى إلى يا زوجتى الحبيبة . . لقد أحرقتى الخوف والحرمات  
وأريد أن أعيش . . أعيش لنفسي . . وليخرب الكون كله ،  
وليزهد جميع حاخامات العالم إلى الجحيم . . ولتخرب  
أورشليم ألف مرة . . سيان عندي إذا عاد المسيح الحقيقى أو  
لم يعد . . )



ألقى القبض على أغلب المتهمين فى قضية مقتل الخادم إبراهيم عمار ، وتم فيها التحقيق على وجه دقيق ، وصدر الحكم بإعدام المتهمين الذين ثبتت إدانتهم مثلما حدث فى قضية الأب توما ، وارتاح جمهور الناس لهذه الأحكام الرادعة العادلة .

وفى الرابع من صفر عام ١٢٥٦ هـ الموافق ٢٢ أبريل سنة ١٨٤٠ أرسل جناب قنصل فرنسا إلى الوالى شريف باشا خطاباً هذا نصه :

(أخبرت دولتكم بإفادتى نمرة ٢٢ بأنه جارى دسائس خفية بخصوص اليهود المحبوسين ، وقد علمت أن اثنين يهوديين أحدهما يدعى (الياهو نحماد) من حلب والآخر (بشوتو) الذى ورد اسمه فى التحقيقات من قبل ، وعدا أحد الرجال المشتركين فى التحقيق بأن يعطياه مبلغاً كبيراً من المال ، لكى يقول أقوالاً مخالفة لما جاء فى أقوال المتهمين

حتى الآن، وقد وعدوه ببعض آلاف الريالات، وحماية  
قنصلية، واقتضى تحريره...).

الكونت دي راتى مانتون - قونسلوس دولة فرانس  
بالشام.

وردت مكاتبة أخرى من جناب القنصل إلى الباشا تحت  
رقم ٢٢ مكرر يقول فيها:

(دولتو أفندم...)

من الواجب أن أضيف على كل ما ذكرته بتحريرى  
السابق نمرة ٢٢ المتعلق بمداخلات اليهود ووسائلهم، أن  
أحدهم طلب من أحد المتحمين للدولة أخرى غير الدولة  
الفرنساوية أن يجتمعاً مع (شبلى أفندى) - موظف فى  
القنصلية الفرنسية - ليتداولوا فى قضية مهمة، فصرحت  
بهذا الاجتماع حباً فى الوصول لمعرفة السبب، فقدم  
اليهودى هذه الطلبات الأربعة:

أولاً: التوقف عن ترجمة الكتب العبرية لأن ذلك مخل  
بحقوق الأمة اليهودية.

ثانياً: ألا يصير وضع هذه الترجمة أو شيء آخر يختص

باليهود فى دوسيه (ملف) القضية بل يلزم إعدام أو إتلاف كل ما ترجمه موسى أبو العافية (محمد أفندى أبو العافية) .  
ثالثاً: أن يصير التوسط لدى لكى أستحصل من دولتكم على الإفراج عن أحد المتهمين (المعلم روفائيل فارحى) ،  
وهو منهم فى قضية الخادم ..

رابعاً: أن تجرى الوسائط لإبدال جزاء الإعدام للمحكوم به على المتهمين بأى عقوبة أخرى .. وبعد انتهاء ما تقدم ذكره يصير دفع خمسمائة ألف قرش (خمسة آلاف دينار عثمانى ذهباً) منها مائة وخمسون ألف وقت التصريح بالرضا ، والباقى عند نهاية القضية ، وإن موظفنا ثبلى مفوض فى توزيع هذا المبلغ حسبما يراه موافقاً ( . . . . . )  
ولدى كيس به بضعة آلاف من القروش أحضره أحد اليهود ، وقد حفظته بصفة أمانة لحين إجراء التحقيق . . . إلخ) .

امضاء

الكولت دى ولتى مانتون -

قونسولوس فرانسا بالشام

وبناء على هذه الإفادات بدأ المحقق آخر فى قضية الرشوة التى أخطر عنها الفصل الفرنسى ، وكانت الإدانة واضحة جلية .

---



كانت كاميليا على علم تام بما يجري من محاولات لإنقاذ المتهمين المحكوم عليهم بالإعدام، وكانت على اتصال بكبار اليهود الذين تزعموا هذه العملية، وخاصة بتشوتو، اليهودى الذى اتهم فى قضية الخادم إبراهيم عمار، وشهد عليه الشهود، والذى ظل يتمتع بقسط كبير من الحرية لأنه تحت حماية دولة النمسا . . ولم يفارق (كاميليا) قلقها طوال هذه المدة . . لأنها تخاف المفاجآت، ما يحدث لو فوجئت ذات يوم بجثة زوجها تسلم إليها كما حدث ليوسف هرارى، ويوسف لينادو؟؟ كانت تغمض عينيها عندما ترد هذه الخواطر على ذهنها، وتحاول جاهدة أن تبعد عنها . . إنها بالتأكيد اليوم لا تريد لزوجها أن ينتهى تلك النهاية

المحزنة، هل هي تحبه؟؟ سؤال صعب الإجابة، أمى تكرهه؟ مثل هذه الأسئلة لم تكن تستطيع فى الحقيقة أن تجيب عليها بكلمة واحدة حاسمة، لا تستطيع أن تقول (لا) أو تقول (نعم) خالصة من الظلال أو الغموض ..  
بالأمس كانت تخونه، وكانت تدرك أن هذه الخيانة لها معنى سىء يرفضه المجتمع، ويزعج زوجها لو علم بها، كانت مؤمنة أنها تفعل فعلاً خاطئاً لكنها -مع ذلك- كانت تفعله، وكانت تفترض أن زوجها رافض له، بل قد يسفك دمها لو علم به، وتتصور زوجها غاضب الوجه، مشتمز النظرات، يريد أن ينشب فيها أظافره وأنيابه، كذئب شرس، هذه الصورة المتخيلة لزوجها كانت تثير الكراهية له فى نفسها، أما زوجها الذى تعايشه وتخطبه، ويرق لها ويبتسم عند رؤيتها، ويحاول مراضاتها بشتى الطرق، فهو نموذج آخر غير النموذج المتخيل الرهيب، لم تكن تحمل لتلك الشخصية الباسمة الرقيقة كراهية ولا حقداً، كان زوجها إذن شخصيتين لا شخصية واحدة، وكانت تكره واحدة منها

وتحترم الأخرى، وكانت تهرب من هذا التمزق النفسى العنيف إلى الخمر وإلى أحضان الخادم، ويوماً كان لها فلسفة غريبة مفادها أنها تحب زوجها لكنه لا يؤدي معها وظيفة الرجل، وكانت فلسفتها الغريبة تزعم لها أن لها الحق فى أن تسد الفراغ القاتل فى حياتها، أو النقص القائم فى زوجها بأية طريقة، ولو مع خادم.. وما أن جاءت الكارثة، وأخذ زوجها إلى السجن حتى شعرت بالحرية.. ذاب خوفها ولم تعد تخاف رجلها الشرعى.. فانطلقت تعربد حتى أفاقت على الحقيقة المرة، حينما أمسكت بها الخادمة أستير وهى فى الوضع الشائن، بعدها أفاقت إلى نفسها، أخذت الصورة الكريهة لزوجها تذوى مع الأيام، وانصرفت إلى تتبع المأساة، وبعد فترة لا تدرى أطالت أم قصرت، وجدت نفسها تقدر ذكرى زوجها وأيديه البيضاء عليها، وتعودت على الصوم.. ربما عانت الكثير فى أيام صومها الأولى لكنها الآن تستطيع أن تصمد.. ومن أن لآخر تراودها خيالات اللثة الأثمة، لكنها سرعان ما

ثوب إلى رشدها، وتستمر في صومها، صوم الجسد عن المحرمات. . . هي لا تنكر أن لها مع زوجها مأساة من نوع خفي يجهله الناس، وتعرفه هي تمام المعرفة، لكن علاج الأمر لا يكون بالجنوح إلى الرذيلة، أليس بإمكانها أن تنفصل عنه، وتبحث لها عن زوج آخر؟ إن هذا التصرف برغم صعوبته وآثاره المؤلمة قد يكون أليق بها كإنسانة تؤمن بالقيم المتوارثة، والأخلاق المتعارف عليها، وبرغم كل ذلك فهي الآن لا تنظر إلا إلى الرجل الذي يذوى ويتحجب خلف القضبان، تريده أن يحيا أولاً، وأن يعود إليها ولترك ما بقي إلى الله. . .

انزعجت (كاميليا) حينما علمت أن الوساطة قد باءت بالفشل، وأن التحقيق قد بوشر في القضية الجديدة، قضية الرشوة التي أبلغ عنها قنصل فرنسا، وكانت تعلم كما يعلم الناس أن شريف باشا والي دمشق صعب المراس، وأنه قد يصدر أمره في أي وقت من الأوقات كي ينفذ عساكره الحكم الصادر ضد اليهود، ولذا كانت تهرى هنا وهناك وتلتقي ببعض رجالات الدول الأجنبية، وتوعد إليهم أنه إذا



لم تكن هناك وسيلة لإنقاذهم فسيضطر بيت هرارى كله نساءً ورجالاً إلى اعتناق الإسلام ، حتى يفلت الرجال من جبل المشتقة ، وفي ذلك عار كبير لليهود واليهودية ، ولم يأل اليهود وسعاً في البحث عن وسيلة ..

وكاد الحكم أن ينفذ لولا أن قنصل فرنسا رأى أن يُرفع الحكم للتصديق عليه من إبراهيم باشا بن محمد علي ، وفي هذه الأثناء جرت أمور مثيرة ..





تأزم الموقف، وخاصة في أوروبا، إذ أقام اليهود الدنيا وأقعدوها، بتحريض من جماعة الاتحاد الإسرائيلي في أوروبا، وكان قناصل الدول يرسلون بتقارير وافية إلى عواصم دولهم، عن هذه القضية، ورأى كبار اليهود في أوروبا أن يحاولوا بثتى الطرق وقف تنفيذ الحكم لفترة يستطيعون خلالها أن يجدوا حلاً . . ولن يستطيعوا تعويق القضية إلا بدفع مبلغ كبير من المال لمحمد على شخصياً، والاستفادة من بعض الضغوط السياسية العالمية، وخاصة أن محمد على باشا، حاكم مصر والشام في تلك الفترة، يقاوم تياراً جارفاً من العداء التركي وبعض الدول الأوروبية، وكان اليهود الأوروبيون ينظرون إلى القضية على أنها أمر يمس الديانة ومستقبلها، ويمس اليهود ككل في أنحاء

العالم الإسلامى والمسيحى ، وليس الأمر مجرد عشرة أفراد حكم عليهم بالإعدام ، فى قضيتى البادرى وخادمه ، وأجريت اتصالات سريعة وعلى أعلى المستويات مع والى مصر محمد على باشا ، وقدم إليه اثنان من كبار اليهود الأوروبيين ممثلين لجمعية الاتحاد الإسرائيلى هما (كراميو) و(مونتيفيورى) الفرنسيان . استقبلهما محمد على بالترحاب البالغ بعد أن تسلم الثمن .

قال (كراميو) :

- (نحن نلتصق منكم إعادة النظر فى الدعوى .. ) .

ابتسم محمد على فى دهاء وقال :

- (أفهم ما ترميان إليه .. تريدان حل الأزمة بطريقة قانونية حتى لا يثور أبناء الشعب ضدى .. تقصدان محاكمة جديدة .. ثم ينكر المتهمون الاعترافات السابقة .. ثم يصدر الأمر بالبراءة .. ) .

قال (مونتيفيورى) اليهودى الداهية :

- (هو ذلك .. ) .

هز محمد على رأسه قائلاً:

- (ليس لدى وقت لهذا كله ، ثم إنى لا أخاف أحداً . .  
الشعب فى قبضة يدي ، ولا يستطيع أحد أن يعترض على  
قرار أتخذه . . إن لى رأى الخاص الذى لا أخاف أن أواجه  
الناس به . .).

وابتلع جرعة من القهوة التركية وقال :

- (سأفعل معكما أحسن من ذلك ، هو أنى سأخلى  
سبيل المحبوسين وأمر بإرجاع الهاربين إلى أوطانهم ،  
وأظن أن ذلك أفضل من إعادة النظر فى القضية ، لأن إعادة  
النظر مما يتسبب عنه استمرار الضغائن بين المسيحيين  
واليهود ، وهذا أمر لا أوده ، وسأخبر القناصل بإرادتى ،  
وأرسل أوامرى الليلة إلى شريف باشا . . إننى أحب اليهود  
لأنهم شعب مطيع يحب الشغل ، وإنى سأظهر لكم ما يفيد  
ملى إليهم بكل ممنونيتهم . .). [هكذا فى الأصل].

ثم سلمهما (فرمان) العفو وذكر فيه هذه الألفاظ لشريف  
باشا :

- (اعف عن المسجونين).
- خرج المندوبان وفي يديهما صورة من فرمان العفو،  
وتوقف (كراميو) لحظة وقال :
- (هذا فرمان خطير يا مونتيغيورى).
- (لقد حققنا نصراً عظيماً ، بثمان بخس ..).
- (أنت واهم .. لقد سقطنا سقطة كبرى ..).
- (ماذا تعنى يا كراميو ..).
- قال كراميو ويده ترتجف بالفرمان :
- (إن كلمة العفو معناها أنهم أدينوا ، وفى ذلك فضيحة  
عالية وخطر كبير على ديننا).
- (هو صحيح ، لكن ماذا نفعل أكثر من ذلك؟).
- ورأى الرجلان أن يعودا مرة ثانية إلى الوالى محمد على  
باشا الذى استقبلهما بالترحاب المعهود ..
- وقال كراميو فى أدب :

- (لقد أردنا أن نبليغ الباشا العظيم أننا قررنا التسرع  
لحكومته الرشيدة بمبلغ يفوق المبلغ السابق).

ابتسم محمد على ابتسامة تاجر قديم كان يبيع الدخان  
فى (قولة) وقال وهو يعبث بلحيته الطويلة :

- (لا شك أنكم تريدون شيئاً آخر غير العفو).

أردف مونتيفورى هذه المرة :

- (سنضع المزيد من إمكانياتنا إلى جانبك فى حرك مع  
أعدائك، سواء من المال أو السلاح أو التأييد السياسى،  
وسيكون أبناء ملتنا فى مصر والشام خداماً مخلصين لك . .  
بل وفى أوروبا أيضاً . .).

انتشى محمد على من الكلمات الحلوة المفرحة وقال :

- (لا أريد مساومة أكثر . . أوجزوا وأفصحوا عما  
تريدون . .).

- (العفو، أطل الله عمرك، معناه أنهم أذنبوا وثبتت  
الجريمة ضدهم، وسوف يعانون من جراء ذلك بعد العفو  
عنهم . .).

ضحك محمد على ضحكة من أعماقه .. ثم قال :

- (ماذا تظنون إذن ؟ إننى أثق فى شريف باشا وفى  
قناصل الدول الذين أشرفوا على كل مراحل التحقيق .. ) .  
طاطا الرجلان رأسيهما بينما همس (كراميو) فى شيء  
من الجراءة :

- (التشكيك فى الجريمة من مصلحة الجميع .. ) .

هز محمد على رأسه عنوان الموافق ، وأراد أن ينهى الأمر  
بسرعة ، وتمتم :

- (إن القضية قد اتسعت وشغلت الأذهان ، ويجب أن  
نبتز الاهتمام بها نهائياً .. ) .

ثم أمر بكتابة (فرمان) آخر تحققت فيه رغبة اليهوديين  
الكيرين ..

(إلى شريف باشا والينا فى دمشق .. )

إنه من التقرير المرفوع إلينا من الخواجات (موز  
مونتيفورى) و(كراميو) اللذين أتيا لطرفنا مرسلين من قبل

عموم الأوروبيين التابعين لشرعية موسى ، اتضح لنا أنهم يرغبون في الحرية والأمان للذين صار سجنهم من اليهود ، وللذين ولوا الأدبار هرباً من تهمة حادثة الأب توما ، الراهب الذي اختفى في دمشق في شهر ذى الحجة سنة ١٢٥٥ للهجرة مع خادمه إبراهيم . .

وبما أنه بالنظر لعدد هذا الشعب الوفير ، لا يوافق رفقاً طلبهما ، فنحن نأمر بالإفراج عن المسجونين وبالأمان للهاربين من القصاص عند رجوعهم ، ويترك أصحاب الصنائع في أشغالهم ، والتجار في تجارتهم ، بحيث أن كل إنسان يشتغل في حرفته الاعتيادية ، وعليكم أن تتخذوا كل الطرق المزدية لعدم تعدى أحد عليهم أينما كانوا ، وليتركوا وشأنهم من كل الوجوه ، هذه إرادتنا) .

[بصمة ختم محمد على]

صورة طبق الأصل . .

عندما قرأ شريف باشا والى دمشق ذلك (الفرمان) الغريب لهت أنفاسه ، ودارت به الأرض ، اشتد به الضيق ،



وأقعده الخطب الجسيم عن النهوض، ورنّت في رأسه كلمة (العدالة) .. لم يذبح البادري وخادمه وحدهما، وإنما قطع جسد العدالة إرباً إرباً، سبعة شهور من التحرى والتدقيق والتحقيق .. اعترافات كاملة .. شهادات ثابتة .. حتى البلاطة المنسوخة التى حطمت عليها جمجمة البادري .. وقطع طربوشه .. وعظامه .. والسكين .. ويد الهاون .. تعاليم التلمود الصريحة .. أقوال الحاخامات .. التفاصيل الدقيقة الصغيرة لكل شىء .. يا ضيعة العدالة .. قناصل الدول الذين شهدوا كل شىء .. وتحققوا من كل شىء .. قضية الرشوة الأخيرة .. العدالة .. العدالة .. هاهاها .. ١

وأخذ شريف باشا يضحك فى هستيرية ثم صاح فحضر العسكر، فقال لهم بصوت عال أجش:

(أفرجوا عن جميع اليهود المسجونين .. تلك إرادة الوالى باشا الأعظم، وليحى العدل ..).

كان ذلك فى يوم ٥ سبتمبر (أيلول) عام ١٨٤٠ ميلادية.





### الخاتمة،

ليالى دمشق نومها عذاب، ونهار دمشق عيون وجلة،  
ووجوه مكفهرة، والأحاديث هامة مشحونة بالثورة،  
وعاد الناي الحزين يرتل أنغامه على شاطئ (بردى) ومواويل  
الحفاة والعراة هي سجل التاريخ الصادق، مواويل ينساب  
منها الحنين، وتنسكب الدموع ..

قال شيخ ضرير يؤم المصلين بعد أن أدى فريضة الفجر :  
﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَإِنَّ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ  
وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦ ، ٢٧] ، تذكروا يهود بنى  
قريظة .. كانوا يا أبنائى حلفاء الرسول ﷺ ، اتفقوا معه على  
أن يردوا كل مهاجم أو معتد على يشرى ، وأن يمدوا

الرسول ﷺ بالمؤن والرجال، عند الضرورة، وجاء (الأحزاب) من كل مكان لحرب الرسول ﷺ، أحاطوا بالمدينة، كان الرسول (قد حفر هو وأصحابه خندقاً كبيراً فلم تستطع الأحزاب أن تعبره... ولم يبق إلا المؤخرة، ولكن فيها حلفاء النبي ﷺ من اليهود... وغدر اليهود... نكثوا العهد... ظنوا أن انحيازهم لقريش والأحزاب سيقضى على الإسلام والمسلمين إلى الأبد، ولكن الله سلم، وصمد المسلمون، وعصفت الريح وتبدد شمل الأعداء، واستدار الرسول ﷺ لِيُنْزِلَ بالغادرين العقاب، كان عقاباً صارماً لا يُنسى).

ثم تنهد الشيخ الضريع وقال :

(عن رب العزة يقول الرسول ﷺ : يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا... والظلم أيها الإخوة ظلمات يوم القيامة... فلتقروا الفاتحة على أن يقسم الله ظهر الظالمين...).

وفهم الحاضرون ما يريد الشيخ أن يقوله، واعتصموا

بالصمت، والصمت بركان حبيس لا يدرى أحد متى  
ينفجر، فيدمر ويسحق الأخضر واليابس ..

وصحا الرهبان فى ذات اليوم فى دير (تيرسانت)،  
وتراصوا للصلاة، كانت الدموع ممتزجة بالتراتيل الحزينة،  
ومن أن لآخر يرفع المرتل صوته باسم (يسوع)، وقال أحد  
الحاضرين وهو يسدد نظراته إلى صورة رائعة للمسيح:

- (ماذا أرى؟ إنها .. ليست صورة المسيح .. إنى أرى  
وجه البادرى توما ..).

وريت أحد الآباء على رأسه فى رقة:

- (لا نحزن يا بنى .. زعموا أن البادرى هاجر .. نعم  
هاجر إلى الله .. إلى ملكوت السماوات .. وصعدت  
روحه الطاهرة على صليب قاس صنعه يهود اليوم. دائماً  
يعبثون بكرامة الإنسان، ويتلذذون بتعذيب الأبرياء،  
الوحش يا أبنائى يلتهم الفريسة دون حقد أو تشف .. أما  
اليهود فقد كانوا يغنون ويرقصون ويضحكون، كانت حياة  
البادرى توما عذراء طاهرة شفافة، وصعدت روحه إلى أبينا

الذى فى السماوات . . مضمخة بالعطى والعبير والأهازيج  
القدسفة . . ) .

ثم تصاعدت تراتيل الراهبات الشجفة نوشى الصمت  
والظلام بنغم حزفن .

وقالت زوجة قنصل من قناصل الدول الكبرى :

- (إن ما حدث فعتبر مهزلة كبرى . . ) .

قال زوجها القنصل ساخرًا :

- (لا شك أنها قصة مسفة ومثيرة، وللأساسة أحكام يا  
زوجتى العزفة، ومفكفافللى فقول فى كتابه (الأمفر) :  
(الغافة تبرر الوسفة . . )) .

وارغمى رجل سكران على قارعة الطرفق وأخذ فهدى :

- (أنا بطل حرب (المورة) . . أنا فارس (عكا) . . أكلت  
مع إفرافم باشا على مائلة واحدة . . لكنى والله ما قنلت  
البادرى ولا أعلم عن الحادث شفًا . . ) .

وانفجر باكفًا فجاء عسكرى الدرك وأخذ فجره إلى ففث  
لا فعلم أحد . .

أمسكت امرأة صغيرة السن بطفلها ثم قرصته من خده  
وقالت :

- (إذا لم تسمع كلامي أرسلتك إلى حارة اليهود  
ليذبحك ..).

وقال يهودى نجار لزميله وهو يدق المسامير فى عصىة :  
- (إنهم لا يعرفون من نحن ، لقد انتصرنا وخرجنا برغم  
أنف شريف باشا ..).

- (آه .. وغداً تنفخ البوق فى أريحا ..).  
- (ونعمّر أورشليم الخراب .. ونرشق راياتنا على أرض  
(الجول) الجرداء .. نحن كل شيء ..).

ومالت راقصة يهودية على ثرى من أثرياء الشام فى  
إحدى الحانات ، وهمست فى دلال :  
- (أتخاف منى ؟).

رد عليها قائلاً :

- (يا سعادتى وهنائى لو مت بين يديك ..).

وبالقرب من المسجد الأموى، وقف بائع الكتب والمخطوطات القديمة يتحدث مع بعض الشباب :

- (انظروا .. هذه كتب قديمة عن ذبائح اليهود، وهذه مخطوطات ألفها علماءنا الأقدمون عن فظائعهم وتاريخهم، ولكن للأسف أنتم لا تقرأون ..).

وقال رجل يقرأ القرآن على أحد المقابر لزميله :

- (أعتقد أن البادرى سيدخل الجنة .. ؟؟).

- (وهل آمن بالله ورسوله .. ؟؟).

أما الصيدلى سانتى صديق الأب توما فقد قال والدموع تترقق فى عينيه :

- (القصة قديمة .. الصراع بين الذهب والمبادئ .. الأنبياء وأتباعهم هم الذين استطاعوا بقوة المبادئ أن يتصروا على إغراء الذهب، وما أكثر المعارك التى تكون فيها الغلبة للذهب .. للأسف الشديد !! توما ضحية العصر المنهار الذى يحكمه الذهب لا القانون .. توما الذى انتصر على سلطان الذهب القاهر، استطاع الذهب فى النهاية أن

يهدر دمه، ويضيق القصاص، ويسحق العدالة، ويلوى أعناق الحكام الكبار ..).

واحتشد عدد من رجال الشرع والقانون، مسلمين ومسيحيين، وقرروا أن يكتبوا عريضة لمحمد على باشا ولشيخ الجامع الأزهر يحتجون فيها على (الفرمان)، غير أن (أحد العقلاء) قال لهم:

- (لا تفعلوا شيئاً كهذا، وإلا ألقيتم بأنفسكم فى مشاكل لا يعلم إلا الله مداها ..).

وتألفت الأنوار فى حارة اليهود، وتناهت إلى أسماع أهل دمشق الأغاني والموسيقى الهادرة، والطبول العالية، وامتلات الحارة الشهيرة بالأعلام والرايات الملونة، وبصورة كبيرة لمحمد على باشا، وعاد المتهمون إلى بيوتهم، وسط التظاهرات الصاخبة، وتلقت كاميليا زوجها وسط الزحام بالقبلات والعناق دون أن تشعر بأدنى حرج، وابتنس داود لها فى ودّ بالغ ..

أما سليمان الحلاق فقد بقى قابلاً فى دكانه لا يعير الأمر اهتماماً، لكنه فكر فى أن يبحث له عن مكان آخر يتخذ له



فيه حانوتًا . . إنه يشعر بحصار من نوع ثقيل ، لا يلمه بيديه وحواسه ولكنه يشعر به ككابوس نفسى مرهق . .

ومحمد أفندى أبو العافية ، بعد أن غادر حارة اليهود إلى الأبد ، كان يرى كل صباح متأبطاً بعض الكتب الدينية والمصاحف ، ومتجهاً إلى المسجد النبوى ، ولم يعلق على خروج اليهود إلا بعبارة موجزة ذات معنى :

- (ليس المهم أن يخرجوا من السجن أو يبقوا فيه ، ولا بهم أن يُعدموا أو تُكتب لهم الحياة . . إن أخطر سؤال يواجه الإنسان المخلص هو : هل يسير على صواب أم يخوض فى أشواك الهلاك والضلال؟؟) .

وما أن هدأت الأحوال واستقرت الأمور وكاد الناس أن ينصرفوا عن حادثة البادرى ومخلفاتها حتى قدمت كاميليا إلى زوجها وقالت فى هدوء محمد عليه :

- (آن أن أخبرك بالحقيقة) .

التفت إليها فى دهشة وقال :

- (ماذا؟؟) .

- (لقد قررت الرحيل).

- (كيف؟؟).

- (لقد أديت واجبي ويجب أن تنتهي حياتنا الزوجية) ..

- (إنني لا أصدق ما أسمع .. كنت نعم الزوجة في محتي ..).

- (أما وقد انتهت المحنة يا داود .. فواجب أن تطلق سراحى).

- (كاميليا حبيبتي .. أنا ومالى وما أملك تحت تصرفك ..).

قالت وهى تبسم فى مرارة:

- (حان الفراق .. ولا فائدة).

أحنى رأسه فى ذلة .. فهم كل شيء .. اقترب منها فى محاولة أخيرة، واختطف يدها وقبلها، ثم ألقى كالكلب على قدميها، فرجعت إلى الوراء بحركة سريعة:

- (لن أرجع فى قرارى . . .).

- (افعللى ما شئت يا حبيبتى ، لك الحرية فى أن  
تستكمللى سمادتك بالطريقة التى ترينها . . لكن لا  
تتركينى . . .).

عادت تبسم فى مرارة . . لشد ما تحتقره الآن ، تمالكت  
أعصابها وقالت فى قوة وإصرار :

- (أنا خارجة ولن أعود . . أى كلام بهذا الخصوص لا  
فائدة منه . . .).

رآها تبغ الخمار على وجهها ، وتحكم العبادة الرقيقة  
على جسدها الفاتن ، وتخطو صوب الباب فى إصرار . .  
فشعر بقسوة الحرمان ، ومرارة العجز . . فهتف :

- (والطفلان؟؟).

دمعت عينها ، وتمتمت :

- (أنا فى انتظارهما دائماً . . ولن أتخلى عنهما أو  
أنساهما . . .).

وأدرك للمرة الثانية في حياته ، وبصورة أعمق وأفظع . .  
كيف يقاسى المطرود من النعيم ، وشعر بكراهية قائمة للحياة  
بكل ما فيها ، ككراهيته اليوم للفطير المقدس . . بل إنه أصبح  
يكره كلمة (مقدس) نفسها . . وحاول أن ينهض فلم يستطع  
وترك لدموعه العنان . .



## تذييل

### قصة بالوثائق

بقلم د. نجيب الكيلاني

لعل من العسير بعض الشيء، أن يكتب الأديب قصة فنية مدعمة بالوثائق، إن الوثائق غالباً ما تأتي جافة مباشرة ولا تهتم إلا بالحقائق المجردة، والصيغ التقليدية والعبارات الركبكية والمتداولة، والوثائق تبرز الحقائق الأولية، ولا تكثرث بالأبعاد النفسية للشخصيات، وقد تغيب في ثناياها بعض الدوافع الهامة والأسس الخطيرة... والفنان الذي يريد كتابة قصة مدعمة بالوثائق لا يستطيع أن يضع الوثائق متجاورة ويتقيد بحرفية التسلسل، وإلا كانت كتابته مجرد بحث تاريخي، أو دراسة قانونية محكمة، وهذا وضع قد يتعارض مع مستلزمات الفن القصصي، ويخرج به عن دائرة الإبداع المطلوب، والإجادة المرجوة، ومن ثم فلا طريق للفنان سوى أن يضع قاعدة عريضة وأساساً متيناً،

يقيم عليهما بناءه الفنى ، ألا وهو الحقائق الكلية ، والاستعانة ببعض الوقائع المبتكرة . ولكى أزيد الأمر توضيحاً أقول : إن الحقائق الكلية ، أقصد بها الأمور الثابتة ، التى أبرزها التحقيق ، وقررتها الوثائق دون شك ، أما الوقائع المبتكرة وهى مهمة لغاية ، فأقصد بها محاولة رسم الخلفية الاجتماعية والعاطفية والنفسية للحدث .

إن زوجة داود هرارى (كاميليا) مثلاً لم يقصد بها سوى إبراز التناقض الحاد ، والعنف الاجتماعى ، والاضطراب العاطفى ، الذى تفرزه التعاليم الزائفة المستقاة من شروح التلمود ، وتعززه القيم الفاسدة ، التى درج عليها المجتمع اليهودى ، بما يسيطر عليه من جشع وأنانية ومادية مفرطة . . (كاميليا) رمز حيوى متحرك ونحيم لمأساة الضلال اليهودى القديم ، وصورة صادقة للعقد النفسية . . التى ينضج بها التاريخ الطويل لملة أصابها الزيف والشطط عبر العصور ، وقس على ذلك ما قد يرد من حوار موضوع ، أو مواقف متخيلة ، لا تتنافى وطبيعة القضية المطروحة ، ولا تخرج عن إطار الحدث المثير .

وإذا كان النهر يشق طريقه من المنبع إلى المصب بقوة ذاتية، وفق قوانين أزلية، فإن إرادة الإنسان الفنان كثيراً ما تحفر له الفروع، وتصنع منه الشرايين التي تزيد من فعالية النهر، وترفع من قيمته وجدواه، دون أن يطفئ ذلك على الصورة التقليدية للنهر الكبير، المتدفق دائماً من المنبع إلى المصب ..

وكان لزاماً من أن لآخر أن أثبت بعض النصوص بحذافيرها، دون أن يتعارض ذلك مع السياق الفني، وهذه النصوص أساسية ومهمة، وتشكل جوهر قضية (الأب توما)، وبعض النصوص لجأنا إلى اختصارها، لتؤدي الغرض المطلوب دون إخلال بالحقيقة التاريخية أو الفنية.

إن حقد الصهيونية على المسيحية قديم، ومؤامراتها ضد الإسلام والمسلمين لا تخفى على أحد، وليس وراء هذه القصة من هدف سوى أن تعيد للأذهان حلقة من سلسلة طويلة من العداء الصهيوني، ضد الإنسانية جمعاء، لعل العالم المسيحي والعالم الإسلامي أيضاً يدركان خطر

الموقف، وما يحفل به المستقبل من كوارث يطويها الحقد  
الصهيوني في قلبه الأسود منذ قرون طويلة، ولعل ذلك  
يكون ناقوساً يدق في عنف يوقظ النيام وسماسة السياسة،  
والمتلاعبين بالألفاظ، وأدعياء البطولة، كي يعلموا أن الأمر  
جدُّ خطير وأن المعركة حاسمة ..

ألا وإن الكمال لله وحده، وذلك جهد المقل والله  
الموفق.





## مراجع الرواية

- وثائق التحقيق فى قضية الأب توما .
- كتاب ذبائح اليهود .
- الكنز المرصود فى قواعد التلمود .
- تأليف : الدكتور روهلنج وشارل لوران .
- ترجمة : الدكتور يوسف حنا نصر الله .
- التلمود (تاريخه وتعاليمه) .
- تأليف : ظفر الإسلام خان .
- دم لفطير صهيون - د. نجيب الكيلانى

[www.forum.ma3ali.net](http://www.forum.ma3ali.net)

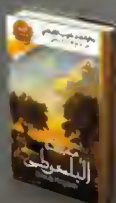


# روايات دنجيب الكيلاني

من إصداراتنا



الطريق الطويل



مملكة البلعوطي



**الصحوه**  
ALSAHON

دار الصحوة للنشر والتوزيع  
5 عطفة هريد من شارع مجلس الشعب  
السيدة زينب - القاهرة  
تليفون 0020223937718  
تليفكس 0020223937767  
بريد إلكتروني  
daralsahoh@gmail.com